الاتجاهات المعاصرة في فلسفة اللغة

صلاح اسماعيل(*)

1 ـ تمهيد

هناك أسباب كثيرة جعلت من اللغة موضوعاً هاماً وجديراً بالدراسة، يأتي في موضع الصدارة منها ثلاثة أسباب: أولاً، يوجد افتراض مؤداه أن اللغة خصيصة إنسانية فريدة تميّز الإنسان من بقية الكائنات الأخرى، ولو نظرنا إلى هذا الافتراض بعين الاعتبار، لكان من الطبيعي أن نعتقد بأن أي تقدم في فهم اللغة سيفضي إلى فهم أفضل للطبيعة البشرية بصفة عامة والعقل البشري على وجه الخصوص: ثانياً، يتعيّن علينا دراسة اللغة لسبب عملي، لأن سوء استعمالنا للغة يؤدي إلى صعوبات متنوعة في التواصل بين الذوات تتجلّى في مشكلات نظرية المعنى، ويفضي إلى صعوبات في إدراك العالم الخارجي تتجسّد في مشكلات نظرية المعرفة والميتافيزيقا؛ وليس من شك في أن الفهم الصحيح للغة يؤدي إلى فهم دقيق لهذه المشكلات ومن ثم يمكن اجتنابها أو التغلب عليها؛ ثالثاً وأخيراً، تدخل اللغة بطريقة أساسية في الفكر والفعل والعلاقات الاجتماعية، فهي «صورة الحياة» على حد تعبير فتجنشتين (1889 ـ 1951)، وهي «بيت الوجود» كما يصفها هيدجر (1889 ـ 1976)، وهي «مرآة العقل» كما يقول العقليون، وهي «فن اجتماعي» كما يصفها كواين (1908 ـ)، ولا عجب بعد ذلك أن نقول كل الصيد في جوف اللغة.

وإذا كانت اللغة تخضع لفحص عميق ودقيق من المختصين بدراستها من أمثال النحاة وعلماء اللغة والبلاغيين، فإنها تمثّل أيضاً موضوعاً للدراسة عند الفلاسفة وعلماء النفس وعلماء الاجتماع والأنثروبولوجيا، ويهتم كل فريق من هؤلاء باللغة اهتماماً خاصاً يتباين عن اهتمام غيره بها، فعلماء اللغة يعنون باللغة لذاتها، أما الفلاسفة فيهتمون باللغة بغية اكتساب معرفة حولها تساعدهم في معالجة المشكلات المحورية في الفلسفة، ويهتم علماء النفس باللغة لأنها تلقي ضوءاً شارحاً على تطور العمليات العقلية ووصفها، أما علماء الاجتماع والأنثروبولوجيا فيهتمون باللغة بغية التوضيح الذي يمكن أن تقدمه حول بنية المجتمعات وطبيعة ثقافتها.

على أن اهتمام الفلسفة باللغة ليس وليد عصرنا، وإنما هو قديم قِدم الفلسفة ذاتها، فأنت تستطيع أن تلتمس اهتماماً بعلوم اللغة والبلاغة والجدل عند السوفسطائيين الأوائل مثل

(*) مدرّس بقسم الفلسفة ـ كلية الآداب ـ جامعة القاهرة ـ جمهورية مصر العربية.

بروتاجوراس، وتجد بحثاً عميقاً يقدمه أفلاطون (428 ـ 348 ق. م.) في محاورة **أقراطليوس**، أما في فلسفة العصر الوسيط فتجد اهتماماً بالغاً باللغة عند فلاسفة الإسلام ويأتي على رأسهم الفارابي (المتوفى 339 هـ) في كتابه **الحروف**، وتجد اهتماماً مناظراً لذلك عند فلاسفة المسيحية مثل أوغسطين (354 ـ 430) في محاورة **المعلم**، وفي الفلسفة الحديثة عني أصحاب الاتجاه العقلي باللغة مثل ديكارت (1596 ـ 1650) وليبنتز (1646 ـ 1716)، وكذلك أصحاب الاتجاه التجريبي مثل لوك (1632 ـ 1704) وباركلي (1685 ـ 1753) وهيوم (1711 ـ 1776) ومل (1806 ـ 1873).

ولكن ما إن هلّ علينا القرن العشرون حتى طرأ على الفلسفة من التغير في وجهة النظر ما بلغ حد الثورة، وسمّي هذا التغير باسم «التحول اللغوي» Linguistic Turn، وأصبح البحث في فلسفة اللغة يحتل مكان الصدر والمحراب في الفلسفة المعاصرة، وليس أدل على ذلك من أن أعظم الكتابات الفلسفية المعاصرة وأقواها أثراً تدور في هذا المجال، بدءاً من كتابات فريجه (1848 ـ 1925) وحتى كتابات كواين وديفيدسون (1917 ـ)؛ ولو أننا نظرنا إلى الدوريات الفلسفية في أعلى مستوياتها الآن، لوجدنا أن موضوع فلسفة اللغة يأتي في موضع الصدارة من اهتمامات الفلاسفة والباحثين في الفلسفة، ولكي نكون بمأمن من الزلل يجمل بنا أن نحدّد مجال حكمنا السابق فنجعله قاصراً على ما يصدر بالإنكليزية.

2 ـ فلسفة اللغة، تحديد المصطلح

يحسن بنا أن نميّز بين عدة مصطلحات كثيراً ما يحدث خلط بينها وهي «فلسفة اللغة» Philosophy of Language من ناحية، و «الفلسفة اللغوية» Linguistic Philosophy و «التحليل اللغوي» Linguistic Analysis من ناحية ثانية، و «فلسفة علم اللغة» Philosophy of Linguistics من ناحية ثالثة؛ فإذا نظرنا في كتابات فلاسفة اللغة، نجد أن هؤلاء الفلاسفة لا يتفقون على تعريف واحد لفلسفة اللغة، وإنما هناك تعريفات متباينة تبعاً لتباين اهتمامات أصحابها، ومن وجهة نظري، فلسفة اللغة هي محاولة لتقديم أوصاف فلسفية لملامح عامة في اللغة من قبيل المعنى والإشارة والصدق، وهي بذلك تحاول التوصل إلى فهم دقيق لثلاثة عناصر هي المتكلم، واللغة، والعالم؛ فالمتكلم يستعمل اللغة لكي يعبر عن ذاته وفكره ويتواصل مع غيره، والعلاقة بين المتكلم واللغة تنتج نظرية المعنى، كما يستعمل المتكلم اللغة للحديث عن العالم فيصفه، أو يتساءل عنه أو يصدر الأوامر لتغييره، والعلاقة بين اللغة والعالم تنتج نظرية الإشارة والصدق؛ ولا ترتبط فلسفة اللغة بعناصر محددة في لغة بعينها، أو بالأحرى في لسان معين اللهم إلا بصورة عارضة، وهي بذلك إسم لمبحث من مباحث الفلسفة، فهي جزء من الفلسفة يصبّ جل اهتمامه على مشكلات تثيرها اللغة ذاتها، وتبعاً لذلك لا تعد فلسفة اللغة دراسة للغة من حيث هي كذلك، وإنما هي حديث فلسفي «حول» اللغة، وليست من بين ما يقال في «علم اللغة» Linguistics، الذي هو دراسة للغة من جميع جوانبها الصوتية والصرفية والنحوية والدلالية وغيرها.

أما مصطلح «الفلسفة اللغوية» فإنه لا يزيد، شأنه في ذلك شأن مصطلح «التحليل اللغوي»، على أن يكون «منهجاً» يمكن استخدامه لحل مشكلات تظهر في الميتافيزيقا والأخلاق والمعرفة وغيرها من مباحث الفلسفة، إذ يعتقد الفيلسوف اللغوي بأننا نستطيع توضيح المشكلات الفلسفية التقليدية وحلها عندما نعيد طرحها في صياغة لغوية، فمثلاً بدلاً من أن نسأل: ما الذي يجعل الفعل أخلاقياً؟ يجب علينا أن نعيد صياغة السؤال في مجموعة من الأسئلة حول معنى أو استعمال تعبيرات من قبيل «خير» و «ينبغي» و «حق» و «واجب» و «إلزام» وهَلُمَّ جَرّاً؛ وفي حالة

المعرفة يتعين علينا أن نفحص استعمال تعبيرات مثل «يعرف» و «يشك» و «يعتقد» و «يظن» و «يفكر» وغيرها؛ وفي مشكلة حرية الإرادة يجب أن نفحص استعمال كلمات من قبيل «يستطيع» و «إرادي» و «لا إرادي»؛ وفي فلسفة العقل يجب أن نبحث استعمال كلمات من قبيل «قصد» و «وعي» و «تخيل» و «إدراك» و «رغبة» و «شعور» و «تذكر» وهَلُمَّ جرّاً.

وإلى جانب مصطلح فلسفة اللغة في ناحية، والفلسفة اللغوية والتحليل اللغوي في ناحية ثانية، يقف مصطلح فلسفة علم اللغة في ناحية ثالثة، فماذا عسى أن يكون المراد بالمصطلح الأخير؟ مما هو جدير بالإشارة أن فودر وكاتز قد ذهبا في مقال «ما هو الخطأ المتعلق بفلسفة اللغة؟» سنة 1962 إلى وجهة نظر مفادها «بقدر ما يقدم علم اللغة الحالي نظرية تجريبية في اللغة، فلا بد من تأويل فلسفة اللغة على أنها ليست شيئاً آخر غير فلسفة علم اللغة، أي الفرع المماثل في كل جانب لفلسفة علم النفس وفلسفة الرياضيات وفلسفة الفيزياء وهَلُمَّ جرّاً»[1]؛ ونحن لا نوافق فودر وكاتز على هذه المطابقة بين فلسفة اللغة وفلسفة علم اللغة، لأن فيها تضييقاً لمجال فلسفة اللغة لا يتفق مع فهمنا لها والذي يكشف عنه تعريفنا السابق.

على أن كاتز عاد ورفض ما قاله مع فودر وذلك في كتابه **فلسفة اللغة** على أساس أن فلسفة اللغة تشكل مجالاً مختلفاً عن فلسفة علم اللغة، إذ ينظر إلى فلسفة اللغة على أنها مجال للبحث الفلسفي عن المعرفة المفهومية أحرى من أن تكون فرعاً من الفروع العديدة في الفلسفة المعاصرة مثل فلسفة العلم وفلسفة الرياضيات وغيرهما، إنها المجال الذي يسعى إلى كشف ما يمكن كشفه حول المعرفة المفهومية من الطريقة التي يتم بها التعبير عن هذه المعرفة وتوصيلها في اللغة؛ وتبعاً لذلك فإن المقدمة الأساسية لفلسفة اللغة هي أن هناك علاقة قوية بين صورة اللغة ومحتواها وصورة عملية التصور ومحتواها، ومن ثم فإن المهمة الخاصة بفلسفة اللغة هي كشف هذه العلاقة ووضع عمليات استدلال حول بنية المعرفة المفهومية التي يمكن إقامتها على أساس ما نعرفه حول بنية اللغة. وعلى هذا النحو تعد فلسفة اللغة مجالاً متميزاً عن فلسفة علم اللغة التي هي جزء من فلسفة العلم، والتي يكون اهتمامها الأساسي هو فحص النظريات والمناهج والممارسة لدى عالم اللغة الوصفي[2]، وثمة حالات من التداخل جديرة بالاعتبار بين هذين المجالين، ولكن هذا التداخل لا يبيح لنا أن نجمعهما تحت اسم واحد «فمشكلات فلسفة اللغة تتطابق تطابقاً جزئياً فحسب مع مشكلات فلسفة علم اللغة ولكن لا يتضمن أي فرع منهما نظيره تضمناً كلياً»[3].

3 ـ مصادر اهتمام الفيلسوف باللغة

هناك مجالات فلسفية يبرز فيها اهتمام الفيلسوف باللغة، ونستطيع أن نتناول ثلاثة منها هي الميتافيزيقا والمنطق ونظرية المعرفة؛ ويمكن وصف الميتافيزيقا على وجه التقريب على أنها محاولة لصياغة الحقائق العامة إلى حدّ بعيد عن العالم، وتنطوي هذه المحاولة على سرد المقولات الأساسية

---

(1) Fodor, J., and J.J. Katz: «What's Wrong with the Philosophy of Language?» in **Philosophy and Linguistics,** edited by C. Lyas, Macmillan, St. Martin's Press, 1971, p. 280.

(2) Katz, J.J.: **The Philosophy of Language,** New York and London: Harber & Row, 1966, p. 4.

(3) Pelc, J.: «The Place of the Philosophy of Language», in **Contemporary Philosophy, A new Survey,** edited by Floistad, vol. 1, **Philosophy of Language and Philosophical Logic,** the Hague, Boston: Martinus Nijhoff, 1981, p. 16.

التي تنتمي إليها الكائنات ووصف علاقاتها المتبادلة، وحاول بعض الفلاسفة الوصول إلى بعض هذه الحقائق العامة عن طريق بحث الملامح الأساسية في اللغة التي نستعملها للكلام عن العالم، لقد قال أفلاطون، مثلاً، في الكتاب العاشر من **الجمهورية**: «نفترض لكل مجموعة من الأفراد يجمعهم اسم مشترك، مثالاً أو صورة مناظرة»[4]. ولتوضيح ذلك يلفت أفلاطون أنظارنا إلى ملمح عام في اللغة مؤداه أنه من الممكن أن ينطبق إسم أو صفة معينة مثل «شجرة» و «حاد» بشكل صحيح وبنفس المعنى على مجموعة كبيرة من الأشياء الفردية المختلفة، ويرى أن هذا لا يكون ممكناً إلا إذا كان هناك كائن واحد يسميه الحدّ العام موضوع البحث، أي «الشجرية» و «الحادية»، والذي يشارك فيه كل فرد من الأفراد، ولو لم يكن ذلك هو الواقع، فسوف يتعذّر على الحد العام أن ينطبق على مجموعة من الأفراد المختلفين[5].

وظهرت في الفلسفة المعاصرة نظرية عرفت باسم «الذرية المنطقية» Logical Atomism دعا إليها رسل (1872 ـ 1970) وفتجنشتين، ولقد ابتكر رسل هذا المصطلح كاسم أطلقه على فلسفته الخاصة التي أودعها مجموعة محاضراته التي نشرت تباعاً عامي 1917 ـ 1918 بعنوان «فلسفة الذرية المنطقية»، وفي هذه المحاضرات يضع رسل المبدأ الآتي «... في رمزية صحيحة منطقياً يوجد دائماً تطابق أساسي معين في التركيب بين الواقعة والرمز الذي يمثلها... ويتناظر التعقيد في الرمز تناظراً دقيقاً غاية الدقة مع التعقيد في الوقائع التي يرمز إليها»[6]. ولعلنا نلاحظ أن هذا التطابق في التركيب لا يفترض بحيث يقوم بين أية لغة موجودة والتركيب الميتافيزيقي الأساسي للعالم، وإنما يفترض ليقوم بين اللغة «الكاملة منطقياً» أو اللغة المثالية والتركيب الميتافيزيقي للعالم، والافتراض هنا هو أننا عندما نبتكر هذه اللغة المثالية، أو نكتسب فكرة تخطيطية على الأقل عما يشبه هذه اللغة، فسيكون في مقدورنا أن نستدل نتائج متنوعة تتعلق بأنماط الوقائع التي منها يتألف العالم، وبنية كل واقعة من هذه الوقائع، وسنكتشف أنماطاً مختلفة من الجمل التي نملكها في هذه اللغة بالنسبة لتقرير الوقائع، على سبيل المثال، جمل الموضوع والمحمول من قبيل «هذا الكتاب ثقيل» والجمل الوجودية مثل «هناك قلم على الورقة»[7]؛ وكل هذا يكشف عن مدى علاقة اللغة بالميتافيزيقا من خلال تحليل بنية اللغة وبنية العالم.

والفرع الثاني الذي تتجلى فيه العناية باللغة هو المنطق، والمنطق هو دراسة الاستدلال، وهو على وجه الدقة محاولة لابتكار معايير لفصل الاستدلالات الصحيحة عن الاستدلالات غير الصحيحة؛ وطالما أن التدليل العقلي يتم نقله عن طريق اللغة، فإن تحليل الاستدلالات يعتمد على العبارات التي تبرز كمقدمات ونتائج، فدراسة المنطق تكشف عن الحقيقة القائلة إن صحة الاستدلال أو عدم صحته تعتمد على صورة العبارات التي تشكل المقدمات والنتيجة، والمقصود بالصورة أنواع الحدود التي تتضمنها العبارات والطريقة التي ترتبط بها هذه الحدود في العبارة[8].

وإذا شئنا أن نعالج عملية الاستدلال المنطقي معالجة دقيقة وكافية، فيجب أن نهتم بطبيعة

---

(4) أفلاطون: **جمهورية أفلاطون**، ترجمة ودراسة فؤاد زكريا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1985، **الكتاب العاشر**، فقرة 596، ص 530.

(5) Alston, W.P.: **Philosophy of Language**, Englewood Cliffs, N.J.: Prentice-Hall, **Inc.**, 1967, pp. 1-2.

(6) Russell, B.: **Logic and Knowledge**, edited by R.C. Marsh, London: George Allen & Unwin LTD., New York: The Macmillan Company, third impression, 1966, p. 197.

(7) Alston, W.P.: **Philosophy of Language**, p. 3.

(8) Ibid., p. 3.

اللغة اهتماماً يتناسب مع خطورتها في هذه المسألة، وطالما أن اللغة أداة معقدة أشد التعقيد، فإن توقع الأخطاء الناشئة عن سوء استعمالها يعد أمراً طبيعياً، ويجب أن نأخذها بعين الاعتبار؛ ومن بين المشكلات الناتجة عن تعقّد اللغة وسوء استعمالها تبرز مشكلات اللبس والغموض والمشترك اللفظي، فربما يكون للكلمة الواحدة في لغة معيّنة معانٍ كثيرة متباينة، وتعرف هذه المسألة باسم «المشترك اللفظي» الذي يعني اتفاق اللفظ واختلاف المعنى أو وضع اللفظ الواحد بإزاء معنيين مختلفين أو أكثر، ومثال ذلك الأبيات رواها السيوطي في **المزهر** عن الخليل، والتي تقول:

يـا ويـح قـلـبـي مـن دواعـي الـهـوى ... إذ رحـل الـجـيران عـنـد الـغـروب

أتـبـعـتـهـم طـرفي وقـد أزمـعـوا ... ودمـع عـيـني كـفـيـض الـغـروب

كـانـوا وفـيـهـم طـفـلـة حـرة ... تـفـتـر عـن مـثـل أقـاحـي الـغـروب

وقال إن الغروب الأول هو غروب الشمس، والثاني جمع غَرْب وهو الدلو العظيمة المملوءة، والثالث جمع غَرْب وهي الوهاد المنخفضة[9].

ولكنّ هذا المشترك اللفظي إذا جاز أن يقع في الشعر وما جرى مجراه من فنون القول التي تعتمد على المجاز، فلا يجوز مطلقاً أن يقع في الاستدلال المنطقي، لأن استخدام الكلمة الواحدة بأكثر من معنى يفسد الاستدلال ويفقده صحته، ومن ثم كان أحد العناصر الهامة في صحة البراهين المنطقية أن تحتفظ الكلمة بمعنى واحد طوال البرهان.

ومن بين المسائل الهامة التي يناقشها المنطقي مسألة الصدق والكذب في القضايا، وذلك يتطلب منه أن يقوم بعملية تصنيف للقضايا من قبيل تصنيفها إلى قضايا تحليلية وتركيبية ومتناقضة، والتمييز داخل العبارات التحليلية بين العبارات التي تكون صادقة منطقياً، وهي الحقائق المنطقية، والعبارات التحليلية التي تقبل الرد إلى حقائق منطقية عن طريق استبدال مرادفات بمرادفات، وكل هذا يستلزم منه أن يحلّل المعنى والصدق للكشف عن عناصرهما مثل المعنى اللغوي والصدق اللغوي، والمعنى التجريبي والصدق التجريبي، ويتطلّب منه أيضاً تحليل بنية القضية، والتمييز بين كلماتها الشيئية التي تشير إلى أشياء وكلماتها المنطقية مثل «إذا» و «إذن» و «ليس» و «أو» وهَلُمَّ جَرّاً؛ وأنت ترى من ذلك كله أن الصلة بين المنطق واللغة هي صلة وثيقة، وأن المنطق يمثل مجالاً هاماً تتجلّى فيه عناية المنطقي والفيلسوف باللغة.

أما الفرع الثالث من فروع الفلسفة التي يظهر فيها الاهتمام باللغة فهو نظرية المعرفة، وأبرز مشكلات هذا الفرع التي تعنى باللغة هو مشكلة المعرفة الأولية a priori، والمعرفة الأولية هي التي يفترضها العقل وتكون سابقة على التجربة مثل المعرفة التي نملكها في الرياضيات؛ ولقد بدا فهم طبيعة هذه المعرفة الأولية وتفسيرها أمراً حيّر أذهان الفلاسفة، إذ كيف نستطيع أن نعرف بيقين وبصرف النظر عن الملاحظة أن 5 + 5 = 10 دائماً وبشكل ثابت؟ والجواب عند أصحاب المذهب العقلي وبخاصة رينيه ديكارت أن المعرفة الأولية تتألف من حقائق خالدة أودعها الله في العقل الإنساني، أما جواب أصحاب التجريبية المنطقية فيتمثّل في أن ما نقرّره في مثل هذه الحالات يكون صادقاً عن طريق التعريف، أو يكون صادقاً بمقتضى معاني الكلمات المستخدمة، أي إنه جزء مما نعنيه بـ (5) و (5) و (10) و (زائد) و (يساوي) أن 5 زائد 5 تساوي 10، أو قل إننا أمام

---

(9) جلال الدين السيوطي: **المزهر في علوم اللغة وأنواعها**، الجزء الأول، الطبعة الأولى، تحقيق محمد أحمد جاد المولى وآخرين، مطبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة، دون تاريخ، ص 376.

تكافؤ بين تعبيرين ينشأ عن مجموعة من المواضعات اللغوية التي قيّدت نفسي بها لضبط استعمالي للأعداد (5) و (10) والعلاقات (+) و (=). وليس من شك في أن هاتين الفكرتين عن المعرفة الأولية موضع خلاف، لكن الذي يعنينا في هذا الخلاف في المقام الأول هو أنه يفضي بنا إلى إثارة أسئلة حول ماهية «المعنى» الذي يمكن أن تتمتع به كلمة معيّنة أو عبارة معيّنة، وكيف يمكن لعبارة معيّنة أن تكون صادقة بمقتضى معاني كلماتها فقط، وعلى هذا النحو يولي الفيلسوف الباحث في نظرية المعرفة عنايته باللغة وبخاصة مشكلة المعنى.

4 ـ اتجاهات فلسفة اللغة

لو ألقينا نظرة فاحصة على خريطة فلسفة اللغة المعاصرة، لتبين لنا أن أبرز ملامح هذه الفلسفة تتمثّل في ثلاثة اتجاهات، الاتجاه الأول يمتد من جوتلوب فريجه (1848 ـ 1925) وبرتراند رسل، ولودفيج فتجنشتين المبكر حتى ويلارد فان كواين ودونالد ديفيدسون، ووجود خط من التطور داخل هذا الاتجاه لا يعني بالضرورة أن النظريات المتضمنة فيه متشابهة أو متقاربة، وإنما الذي يعنينا من زاوية فلسفة اللغة أن هذا الاتجاه يهتم في غالب الأمر بالعلاقة بين المعنى والصدق، إذ إنه يعالج العلاقة بين اللغة والأشياء التي تدور حولها كلمات المتكلم ومن ثم يبحث في شروط صدق الجمل أو محاولة تحديد هذا الصدق. والسؤال الهام في هذا الاتجاه هو: ما هي شروط صدق المنطوق؟ ويرتبط هذا الاتجاه ارتباطاً وثيقاً بفلسفة العلم.

أما الاتجاه الثاني فيمتد من جورج مور (1873 ـ 1958) وفتجنشتين المتأخر وفلاسفة مدرسة أكسفورد وأبرزهم رايل (1900 ـ 1976) وأوستن (1911 ـ 1960) وستراوسون (1919 ـ) ويسير في ركابهم بول جرايس وجون سيرل: وعلى حين يحفل الاتجاه الأول ببحث العلاقة بين اللغة والعالم، نجد أن الاتجاه الثاني يصبّ جلّ اهتمامه على العلاقة بين اللغة والمتكلم، وهنا ينشأ الاهتمام بأسئلة تتعلق باستعمال اللغة وباللغة منظوراً إليها كجزء من السلوك الإنساني. والسؤال الأساسي في هذا الاتجاه هو: ما هي العلاقة بين المعنى والاستعمال؟ ويخطىء المرء لو ظن أن هذين الاتجاهين منفصلان كل الانفصال، وإنما الأقرب إلى الصواب القول بأنهما يتداخلان ويتشابكان بطرائق شتى: فنظرية الاستعمال في المعنى تمثّل جانباً مشتركاً بين الاتجاهين ولكن كل اتجاه يناقشها من منظوره الخاص، زد على ذلك أن الاتجاه الثاني لا يرفض السؤال الأساسي في الاتجاه الأول وهو: ما هي العلاقة بين اللغة والعالم؟ وإنما يضعه في سياق أكبر عندما يتساءل: ما نوع السلوك الذي يعد سلوكاً لغوياً؟ وهنا يتخذ البحث مسلكاً آخر ويركز على مقاصد المتكلم والأغراض التي يبتغيها من وراء المنطوق.

وإذا كان الاتجاه الأول ينظر إلى الفلسفة نظرة علمية، فإن الاتجاه الثاني يعتبر الممارسة العادية معياراً للبحث الفلسفي، يقول تايلر بيرج: «إن التقليد المستمد من فريجه أخذ العلم والمنطق والرياضيات كمصدر للإلهام بالنسبة للفحص اللغوي والفلسفي، على حين أن التقليد المستمد من مور أخذ الممارسة العادية على أنها المحك بالنسبة للحكم اللغوي والفلسفي»[10].

أما الاتجاه الثالث من اتجاهات فلسفة اللغة المعاصرة فإنه يرتكز على أساس النظرية التحويلية في علم اللغة كما تصورها كتابات نعوم تشومسكي (1928 ـ) ولقد ترتب على هذه النظرية

---

(10) Burge, T.: «Philosophy of Language and Mind: 1950-1990», **The Philosophical Review,** vol. 101, No. 1, January 1992, p. 12.

تصور معيّن لفلسفة اللغة يتضح في كتابات جيرولد كاتز وجيري فودر بالإضافة إلى كتابات تشومسكي نفسه.

وسبيلنا الآن إلى تفصيل ما أوجزناه، ألمحنا إلى أن الشخصية الأولى في الاتجاه الأول هي فريجه، وكان فريجه مهتماً بالرياضيات والمنطق في المقام الأول، ويعد مؤسس التيار المسمّى بالنظرية اللوجستيقية Logisitc Theory، وهو التيار الذي يرد الرياضيات البحتة برمتها إلى المنطق بحيث تصبح الرياضيات جزءاً من المنطق وامتداداً له. والحق أن إسهامات فريجه في فلسفة الرياضيات وفلسفة المنطق وفلسفة اللغة تعد مصدراً أساسياً تستقي منه البحوث الفلسفية المعاصرة نظرياتها وأفكارها، وإن شئت دليلاً على ذلك فانظر في كتابات رسل وكارناب وفتجنشتين وديفيدسون وستجد تأثير فريجه واضحاً وعظيماً. وقدم فريجه مجموعة من الأفكار الأساسية التي اعتمد عليها «التحول اللغوي» في عصرنا، ولكن إحداها التي تجيء من سواها في الطليعة هي الفكرة القائلة إن بعض المشكلات الفلسفية هي في حقيقة الأمر مشكلات زائفة تنشأ عن نقائص معيّنة في اللغة الطبيعية، ونحن نستطيع حلّ مثل هذه المشكلات عن طريق بناء لغة مثالية تحل محل اللغة الطبيعية، وأبرز مزايا اللغة المثالية هي أنها تمكّننا من الاستدلال الدقيق، لأن بناء اللغة المثالية يتأسس على أفكار فنية من داخل المنطق، وقدم فريجه نموذجاً لهذه اللغة في كتابه **التصورات**.

وإلى جانب هذه الفكرة اصطنع فريجه تفرقة هامة بين معنى التعبير وإشارته وذلك في مقالته «المعنى والإشارة» 1892، وقامت هذه التفرقة على أساس أنه قد يكون لتعبيرين نفس الإشارة، بينما لا يكون لهما معنى واحد بعينه، بل معنيان مختلفان، والمثال الكلاسيكي الذي قدمه فريجه هو «نجم الصباح» و «نجم المساء»؛ فعلى الرغم من أنهما يشيران إلى نفس الشيء وهو كوكب الزهرة، فإنهما يختلفان في المعنى، وهذا يدل على وجود رموز لغوية يكون لها نفس الإشارة من غير أن تكون مترادفة في المعنى، كأن نقول مثلاً عن «العقاد» إنه «مؤلف عبقرية محمد» و «مؤلف عبقرية عمر». وإذا لم ننتبه إلى هذا التمييز الذي وضعه فريجه، فسنقع لا محالة في بعض المشكلات المنطقية واللغوية التي تتجسد في نظريات ضعيفة تشوبها النقائص مثل النظرية الإشارية referential theory في المعنى، والتي مؤداها أن معنى الكلمة هو ما تشير إليه، وتخطىء هذه النظرية عندما تخلط بين المعنى والإشارة، وتخطىء أيضاً عندما ترتب على هذا الخطأ القول بأن أي كلمتين تعنيان نفس الشيء (أي تكونان مترادفتين) عندما تشيران إلى شيء بعينه؛ وانتقد رايل هذا الخطأ بين المعنى والإشارة في ما أسماه بنظرية الفيدو ـ فيدو في المعنى.

وإلى جانب إسهامات فريجه ورسل في فلسفة اللغة، نجد أن هناك فيلسوفاً عبقرياً قام بدور حاسم وبارز في تطور هذه الفلسفة في عصرنا ألا وهو فتجنشين، ولقد مرت فلسفته بتحول كبير الأمر الذي دفع الباحثين إلى تصنيفها إلى مرحلتين أساسيتين هما فتجنشتين المبكر وفتجنشتين المتأخر. فأما فتجنشتين المبكر فقد أثّر في فلاسفة الاتجاه الأول اللاحقين عليه مثل فلاسفة الوضعية المنطقية، وأما فتجنشتين المتأخر فقد أثر في فلاسفة الاتجاه الثاني مثل فلاسفة أكسفورد؛ وسنركز حديثنا الآن على فتجنشتين المبكر الذي يتضح تصوره لفلسفة اللغة من خلال فهمه لوظيفة الفلسفة بصفة عامة، فهو بخلاف بعض الفلاسفة يرى أنّ مهمة الفلسفة لا تتمثّل في إضافة معرفة جديدة إلى معرفتنا، وإنما تتمثّل في توضيح ما نعرفه بالفعل، ولذلك نراه يقول في **رسالة منطقية فلسفية**: «إن موضوع الفلسفة هو التوضيح المنطقي للأفكار، فالفلسفة ليست نظرية من النظريات بل هي فاعلية، ولذا يتكون العمل الفلسفي أساساً من توضيحات، ولا تكون نتيجة الفلسفة عدداً من القضايا الفلسفية، إنما هي توضيح للقضايا، فالفلسفة يجب أن تعمل على

توضيح وتحديد الأفكار بكل دقة، وإلا ظلت تلك الأفكار معتمة ومبهمة، إذا جاز لنا هذا الوصف»[11]. وعلى هذا النحو فإن المهمة الأساسية للفلسفة عند فتجنشتين هي توضيح منطق اللغة والفحص الدقيق لكيفية عملها، إذ إن العجز عن فهم طريقة عمل لغتنا يؤدي إلى نوع من القلق اللغوي الذي يكشف عن ذاته في إثارة مشكلات قد لا تكون في حقيقتها مشكلات على الإطلاق.

ولو أمعنا النظر في الأفكار المحورية التي دار حولها بحث فتجنشتين في «الرسالة»، لوجدنا أنها تتمثل في فكرته عن الذرية المنطقية، والنظرية التصويرية في اللغة، ونظريته في طبيعة المعنى، ونظرية دوال الصدق، وفكرته عن الأنا وحدية، ولكنّ النظرية التصويرية والذرية المنطقية تمثلان لب لباب تلك «الرسالة».

ويمكن فهم النظرية التصويرية فهماً جيداً إذا ألقينا نظرة سريعة على الذرية المنطقية، والذرية المنطقية عند فتجنشتين هي نظرية عن القضايا ونظرية ميتافيزيقية في آن واحد، ومصدر ذلك أن افتراض رد العالم إلى وقائع ذرية يتمّ التعبير عنها بالقضايا الأولية هو افتراض ميتافيزيقي في صميمه؛ ولذلك يجوز تقديم مجموعتين متميزتين من الافتراضات، الأولى هي افتراضات الذرية المنطقية ومن بينها:

1 ـ افتراض التحليل القابل للانتهاء، فالقضايا التي يتم تحليلها تماماً تتألف فقط من أسماء بسيطة (والأسماء البسيطة غير قابلة للتحليل).

2 ـ افتراض الأسماء الفارغة من المعنى، إذ الأسماء البسيطة ليس لها معنى ولكنها ذات إشارة بالضرورة[12].

والمجموعة الثانية من الافتراضات هي افتراضات الذرية الميتافيزيقية وهي:

1 ـ تشكّل الأشياء البسيطة جوهر العالم.

2 ـ يتحدد وجود العالم عن طريق جميع الأشياء.

3 ـ إن وجود واقعة ذرية معيّنة أو عدم وجودها مستقل منطقياً عن وجود أية واقعة ذرية أخرى أو عدم وجودها[13].

وواضح أن الافتراضات الأولى تنصبّ على بنية اللغة في حين تنصبّ الثانية على بنية العالم، ويسلك فتجنشتين في تحليله طريقين متوازيين أحدهما تحليل العالم والآخر تحليل اللغة، ويمضي في تحليل العالم من الوقائع المركبة إلى الوقائع البسيطة التي لا تنطوي على وقائع أخرى طالما أنه لا يمكن تجزئتها إلى ما هو أبسط منها، وفي خط موازٍ يمضي فتجنشتين في تحليل اللغة من قضايا تنحل إلى قضايا أولية لا يمكن تجزئتها إلى ما هو أبسط منها، وقوام القضية الأولية مجموعة من الأسماء. والسؤال الآن هو: إذا كان تحليل العالم قد انتهى إلى أشياء وانتهى تحليل اللغة إلى أسماء، فما هي العلاقة بين اللغة والعالم وإن شئت قل بين الأسماء والأشياء؟

---

(11) لودفيج فتجنشتين: **رسالة منطقية فلسفية**، ترجمة عزمي إسلام، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة 1968، الفقرة 112 و4، ص 91.

(12) Hacker, P.M.S.: «The Rise and Fall of the Picture Theory», in I. Block, ed. **Prespective on the Philosophy of Wittgenstein**, Cambridge, Massachusetts: the MIT Press, 1981, p. 93.

(13) Ibid., p. 95.

جواب ذلك هو النظرية التصويرية برمتها. ومؤدى هذه النظرية أن اللغة صورة للواقع، والاسم الوارد في القضية يمثّل الشيء في الواقعة، والعلاقة بين الاسم والشيء هي علاقة واحد بواحد، يقول فتجنشتين: «إننا نكوّن لأنفسنا (صوراً) للوقائع»[14] و «القضية هي (صورة للوجود الخارجي، لأنني أعرف الواقعة التي جاءت لتمثيلها، وذلك إذا فهمت القضية»[15]؛ ويخطىء المرء لو ظن أن القضية سلسلة أو قائمة من كلمات، وإنما الأصح أنها ارتباط بين كلمات، إذ ليست القضية خليطاً من الكلمات (كما أن القطعة الموسيقية ليست خليطاً من النغمات)»[16]. وعلى هذا النحو يؤكد فتجنشتين على عنصر الترتيب في القضية أو الجملة الذي يناظر عنصر التركيب في الواقعة، ويتضح ذلك لو تأملنا القضية أو الجملة القائلة «محمد ضرب علياً» فهي تتألف من أربعة عناصر هي محمد وعلي وعلاقة الضرب وترتيب الكلمات في الجملة، وتتألف الواقعة التي تكون هذه الجملة صورة لها من أربعة عناصر هي شخص محمد وشخص علي والضرب وتركيب هذه العناصر الذي مؤداه أن محمداً هو الذي قام بالضرب وأن علياً تلقاه وليس العكس؛ وإذا كانت القضية صورة للواقع، ويكمن صدق هذه الصورة أو كذبها في مدى اتفاقها مع الواقع أو اختلافها عنه، فمن الضروري مقارنة القضية بالواقعة، فإذا كانت الصورة مطابقة للواقع كانت القضية صادقة وإذا كانت غير ذلك كانت كاذبة.

لقد أفضت النظرية التصويرية في اللغة إلى القول بعدة أفكار من بينها فكرة الأنا وحدية، وطالما أن القضية صورة للواقع، فإن ذلك يستلزم أن تكون حدود هذا الواقع هي حدود اللغة التي أعبّر بها عنه: «إن حدود لغتي تعني حدود عالمي»[17]. ويمكن إيجاز فكرة الأنا وحدية في القول بأن ما يقع في خبرتي أنا فقط هو ما يوجد وأن ما لا يقع في خبرتي أنا لا يوجد، وعلى هذا النحو يعتمد معنى العالم ووجوده على إدراك الإنسان له، كما يتوقف معنى اللغة على ما يعبّر به الإنسان عما يحدث في حدود خبرته الخاصة، ومن ثم تصبح حدود العالم هي حدود اللغة عند هذا الإنسان المدرك.

وأثرت «رسالة» فتجنشتين تأثيراً عظيماً في جماعة فينا، فكانت «الرسالة» أحد الكتب التي تدارسها أعضاء الجماعة في ما بينهم، وشكّلت مناقشات جماعة فينا الإطار العام لحركة الوضعية المنطقية التي سمّيت بأسماء أخرى مثل «التجريبية المنطقية» و «التجريبية العلمية» و «الفلسفة الوضعية الجديدة»؛ وضمت الوضعية المنطقية عدة أسماء من أبرزها شليك مؤسس جماعة فينا، وفايزمان (الذي أخذ في فلسفته المتأخرة بموقف قريب من فتجنشتين المتأخر ومدرسة أكسفورد)، وكارناب وفايجل وكرافت وجودل وكاوفمان وأير وغيرهم، وجرى الاتفاق بين هؤلاء الفلاسفة على عدة مبادىء شكلت لب حركتهم الفلسفية وهي:

1 ـ الفلسفة تحليلية.

2 ـ الفلسفة علمية.

3 ـ القضايا إما تحليلية أو تركيبية.

4 ـ معنى الجملة هو منهج التحقق منها.

---

(14) لودفيج فتجنشتين: **رسالة منطقية فلسفية**، ترجمة عزمي إسلام، الفقرة 2,1، ص 67.

(15) المرجع السابق، الفقرة 4021، ص 85.

(16) المرجع السابق، الفقرة 3,141، ص 72.

(17) المرجع السابق، الفقرة 5,6، ص 138.

5 ـ الميتافيزيقا لغو.

وسوف نقصر حديثنا هنا على المبدأين الثالث والرابع لأنهما يشكلان نظرية المعنى في هذه الفلسفة. ويمكن فهم هذين المبدأين فهماً دقيقاً من خلال تصور هؤلاء الفلاسفة لوظيفة اللغة وكيفية عملها، إذ ميّزوا بين وظيفتين أساسيتين للغة إحداهما هي الوظيفة المعرفية Cognitive أو الإخبارية Informative وتستخدم فيها اللغة للإشارة إلى وقائع وأشياء موجودة في الواقع، ولا تزيد مهمة اللغة بذلك على أن تجيء تصويراً لتلك الوقائع والأشياء؛ وأما الأخرى فهي الوظيفة غير المعرفية non-cognitive والانفعالية emotive. ومؤداها أن المرء قد يستخدم اللغة للتعبير عن أفكار لا سبيل إلى التحقّق منها في الواقع مثل القول بوجود تفاعل عِليّ بين النفس والبدن أو بأن الوجود روحي في طبيعته، أو أن المرء قد يستخدم اللغة للتعبير عن المشاعر التي يجود بها الخاطر كما هو الحال مع الشاعر مثلاً، ويدخل في نطاق هذه الوظيفة غير المعرفية استعمالات معيّنة للغة تشغل بال الفيلسوف الذي يعالج مسائل الميتافيزيقا والأخلاق والجمال، ولو اكتفى فلاسفة الوضعية المنطقية بالتمييز بين هاتين الوظيفتين ما كان هناك صراع واصطراع، ولكن غلوهم في حب العلم كما فهموه دفعهم إلى الوقوع في خطأ معرفي ودلالي في آن معاً، لأنهم أصرّوا على أن العبارات التي تندرج في إطار الوظيفة المعرفية، أي العبارات التجريبية، هي وحدها ذوات المعنى، بالإضافة إلى قضايا تحصيل الحاصل؛ أما العبارات التي تقع في نطاق الوظيفة غير المعرفية مثل عبارات الميتافيزيقا والأخلاق والجمال فهي عبارات خالية من المعنى على أساس أننا لا نجد لها من وقائع العالم ما يجعلها صادقة أو كاذبة، وعلى هذا النحو تحدّدت مهمة العبارة ذات المعنى في وصف حالة من حالات الواقع، ثم يأتي الحكم على هذه العبارة بالصدق أو بالكذب بناء على قابليتها للتحقّق.

ولا تخرج العبارة التي يمكن وصفها بالصدق أو بالكذب عن أحد نوعين: فهي إما تحليلية أو تركيبية، العبارة التحليلية هي التي لا تخبرنا بخبر جديد عن الموضوع الذي نتحدث عنه، وإنما تحلّل ذلك الموضوع إلى عناصره، فإذا قلنا مثلاً «الأرملة إمرأة مات زوجها» فنحن لا نقول شيئاً جديداً يضاف إلى تعريف الأرملة، إذ لو طلب منا شخص ما أن نحدد له معنى الأرملة أولاً قبل أن نقول عنها ما نقوله، لاستحال علينا توضيح معناها من غير أن نذكر هذه الصفة عنها، أي أنها إمرأة مات زوجها، وهكذا لم يخبر قولنا بخبر جديد، وإنما هو تحصيل حاصل أو عبارة تحليلية. أما العبارة التركيبية فهي التي تخبرنا بخبر جديد عن الواقع، إذا شئنا أن نتثبّت من صدقه أو كذبه تعيّن علينا أن نقارن بين واقع الأشياء وما تزعمه العبارة، فإذا قلنا «الحجرة مظلمة»، فلسنا نقول بذلك معنى كلمة الحجرة، وإنما نضيف إلى معناها خبراً هو أنها مظلمة، ولكن هب أن شخصاً طلب منا أن نحدّد له معنى كلمة «الحجرة» قبل أن نقول له عنها ما نقول، عندئذٍ نستطيع أن نشرح له معناها دون أن يكون قولنا إنها مظلمة جزءاً من معناها، ومن ثم فقولنا عنها إنها مظلمة هو خبر جديد يتطلب تصديقه أو تكذيبه مراجعة الواقع. العبارة التحليلية إذن عبارة تكرارية، وتحصيل حاصل، ويقينية، ومحك الصدق فيها هو اتساق صدرها مع عجزها. والعبارة التركيبية تجريبية، واحتمالية، مقياس الصدق فيها هو تجربة الحواس، والعبارات من هذين النوعين هي وحدها العبارات ذوات المعنى.

أما الأساس الذي يستند إليه هؤلاء الفلاسفة عند تفرقتهم بين ما له معنى من العبارات وما لا معنى له فهو «مبدأ التحقق». يقول شليك: «كلما نسأل عن جملة (ماذا تعني؟) فإننا نتوقّع درساً عن الظروف التي تستعمل الجملة فيها، ونود أن نصف الشروط التي سوف تشكّل الجملة بمقتضاها قضية (صادقة) والشروط التي تجعلها (كاذبة)... ومعنى القضية هو منهج

تحققها»[18]. وفي نفس المعنى يقول فايزمان: «لكي يحصل المرء على فكرة عن معنى القضية، فمن الضروري أن يكون واضحاً بشأن الإجراء الذي يؤدي إلى تحديد صدقها، وإذا لم يعرف المرء هذا الإجراء، فلا يمكن له أن يفهم القضية أيضاً... إن معنى القضية هو منهج تحققها»[19].

ولم يكد يمارس مبدأ التحقق تأثيره القوي في الفلسفة المعاصرة حتى ثار أمامه سيل من الاعتراضات القوية، واختيارنا لاثنين منها فقط لا يعني إقلالاً من شأن الاعتراضات الأخرى أو شكّاً في مشروعيتها، وإنما سياق الحديث هو الذي فرض علينا ذلك، انصب الاعتراض الأول على منطوق المبدأ نفسه ومؤداه أن عبارة المبدأ ليست عبارة علمية يمكن التحقّق منها، وبالتالي يمكن رفض المبدأ باعتباره خالياً من المعنى، بيد أن هذه الحجة مردود عليها بما يسمى بنظرية الأنماط المنطقية التي مفادها أن العبارات اللغوية ليست من نمط واحد، ومقياس الصدق في أحد هذه الأنماط ليس هو مقياسه في النمط الآخر؛ تأمل العبارتين: «انكسر الزجاج لأن الرياح عصفت به» و «لكل حادثة سبب»، فإذا وصفنا العبارة الأولى بأنها عبارة سببية، إذن لا نستطيع أن نصف الثانية بالطريقة ذاتها، لأن مبدأ السببية لا يمكن أن يكون هو نفسه عبارة سببية تتناظر مع العبارات التي تضرب له الأمثلة؛ حقاً إن تسميته مبدأ هو التصريح بأنه ليس عبارة على الإطلاق، وبطريقة مماثلة، يجب أن لا نتوقع أن يكون مبدأ التحقّق بذاته موضوعاً للمعيار الذي يتحكّم في رسم العبارات ذات المعنى، فنحن لا نتوقّع أن تزن آلة الوزن نفسها[20]، ولكن إذا لم يكن مبدأ التحقق عبارة تقبل التحقق، فماذا عساه أن يكون؟ الجواب عند أصحاب الوضعية المنطقية أنه لا يجب أخذ المبدأ بوصفه «عبارة» بل بوصفه «اقتراحاً» أو «توصية» بألاّ نقبل القضايا على أنها ذوات معنى إلاّ إذا كانت قابلة للتحقق.

أما الاعتراض الثاني فيتعلّق بطبيعة الكائنات التي يطبّق عليها المبدأ، أهي الجمل أم القضايا أم العبارات؟ لو أخذنا الجمل أولاً، لوجدنا أن هناك صعوبة بشأن النظر إلى الجمل بوصفها صادقة أو كاذبة، ومن ثم كونها قابلة للتحقق أو غير قابلة، إذ لا يمكن للإنسان أن يتساءل عما إذا كانت الجملة «الباب المفتوح» صادقة أو كاذبة، لأن الجملة ذاتها ربما تستعمل لقول شيء صادق في مناسبة وكاذب في أخرى، صادق بالنسبة لمجتمع كلامي معين وكاذب بالنسبة لآخر، وبالتالي فإن الكلام عن «منهج التحقق للجمل» لا معنى له. وفي محاولة للتغلب على هذه الصعوبة، استند أنصار المبدأ إلى مصطلح «القضية» وتبعاً لاستعمال هذا المصطلح نجد أن الجملة «إنها تمطر» المنطوقة يوم الجمعة سوف تعبّر عن القضية ذاتها «كانت تمطر في يوم الجمعة» المنطوقة يوم السبت أو الأحد، فالقضية هي إسم يختصّ بالشيء الذي يظل صادقاً أو كاذباً طوال مجموعة منوعة من الجمل، وعند أكثر من متكلم وفي أكثر من مناسبة.

ولكن إذا كان هذا مبدأ التحقق باستعماله كلمة «قضية» بدلاً من «جملة» قد تخلص من مشكلة، فإنه سرعان ما يقع في مشكلة أخرى تتعلق باستعمال المبدأ كمعيار لما هو ذو معنى، إذ يذهب أنصار المبدأ إلى أن القضية التي ليس لها منهج للتحقق ليس لها معنى، وهنا لا يفيد معنى أن

---

(18) Schlick, M.: «Meaning and Verification» in A. Lehrer and K. Lehrer, eds., **The Theory of Meaning,** Englewood Cliffs, N.J.: Prentice-Hall, 1970, pp. 100-101.

(19) Waismann, F.: «Verification and Definition», in O. Hanfling, ed., **Essential Readings in Logical Positivism,** Basil Balcwell, Oxford, 1981, p. 27.

(20) Evans, J.L.: «On Meaning and Verification», **Mind,** vol. LXII, No. 245, 1953, p. 3.

نطبّق هذا المعيار على القضايا، طالما أن القضية، بحكم تعريفها، صادقة أو كاذبة، وما يكون صادقاً أو كاذباً لا يكون خالياً من المعنى، ومن ثم لا يصلح المبدأ كمعيار للتفرقة بين ما له معنى وما لا معنى له. وعلى هذا النحو يجد أنصار مبدأ التحقق أنفسهم أمام معضلة لا سبيل إلى الخروج من قرنيها، فإما أن يكون المبدأ حول الجمل، وبالتالي لا يمكن طرح السؤال «هل هي صادقة؟» وإما أن يكون حول القضايا وبالتالي لا يمكن طرح السؤال «هل هي ذوات معنى؟» وخلاصة هذا الاعتراض هي أن المبدأ إما أنه غير ضروري أو لا سبيل إلى تطبيقه[21].

وهكذا أخذت الاعتراضات تتوالى، وجاء كل واحد منها بمثابة حجر عثرة أمام قبول مبدأ التحقق واستعماله، وكانت هذه الاعتراضات قوية إلى الحد الذي أجبر أنصار المبدأ إلى التنازل تدريجياً عن كثير من الدعاوى التي ذهبوا إليها، فقد ذهب «أير» وهو بصدد حديثه عن معيار القابلية للتحقق Criterion of Verifiability إلى أنه لا يشترط لكي تكون العبارة ذات معنى أن يكون التحقّق منها «تحققاً عملياً» بل يكفي التحقق «من حيث المبدأ»[22]، وليس من شك في أن الصيغ المعدلة للمبدأ مثل «التحقق بالمعنى القوي» و «التحقق بالمعنى الضعيف» و «قابلية التحقق العملي» و «قابلية التحقق من حيث المبدأ» أظهرت مدى افتقاره إلى الدقة المرومة فيما يوهم أنه معيار صارم للمعنى؛ ولقد دفع إخفاق نظرية التحقق في المعنى بعض الفلاسفة إلى البحث عن نظرية ملائمة لطبيعة اللغة وطبيعة المشكلات الفلسفية المتنوعة، وتجسّدت نتيجة هذا البحث في نظرية الاستعمال عند فتجنشتين المتأخر وفلاسفة مدرسة أكسفورد كما سنوضح فيما بعد.

وعبر تدفق هذا الاتجاه الأول من اتجاهات فلسفة اللغة يبرز إسهام الفيلسوف الأميركي المعاصر كواين، ولو شئت أن تدرك المكانة العالية التي يشغلها هذا الفيلسوف في الفلسفة المعاصرة، فاقرأ ما يقوله عنه الفلاسفة الآخرون، وها هو «أير» على سبيل المثال، يقول: «منذ وفاة فتجنشتين وتحول اهتمامات رسل الأساسية من الفلسفة إلى السياسة والفيلسوف الحي الذي أثّر في زملائه أعظم الأثر، على الأقل في العالم الناطق بالإنكليزية، هو الأميركي ويلارد فان أورمان كواين»[23].

وحضر كواين في عامي 1932 ـ 1933 بعض لقاءات جماعة فينا، وبدأ يحدّد موقفه من الأفكار التي تسلّم بها هذه الجماعة، فقبل بعضها ورفض بعضها الآخر؛ وتكتسب انتقاداته للأفكار التي أخذ بها غيره من التجريبيين أهمية خاصة تكمن في أنها انتقادات من داخل التيار التجريبي نفسه، فكواين ينقد التجريبية ويطورها من داخلها، ويتجلّى هذا في تحديده لمعالم التجريبية بعد هيوم في مقالته **خمسة معالم للتجريبية** حيث ارتقت التجريبية مرتقىً صعباً من التحسين، وينظر كواين إلى فلسفته على أنها تمثل ذروة هذا التحسين، وتلك المعالم هي:

1 ـ التحول من الأفكار إلى الكلمات.

2 ـ تحول المركز الدلالي من الكلمات إلى الجمل.

3 ـ تحول المركز الدلالي من الجمل إلى أنساق الجمل.

4 ـ الواحدية المنهجية، أي التخلي عن ثنائية التحليلي ـ التركيبي.

---

(21) Hamfling, O.: **Logical positivism,** Oxford: Blackwell, 1981, p. 16.

(22) Ayer, A.J.: **Language, Truth and Logic,** New York: Dover Publications, 1952, p. 36.

(23) Ayer, A.J.: **Philosophy in the Twentieth Century,** London: Weidenfeld and Nicolson, 1982, p. 242.

5 ـ المذهب الطبيعي، أي التخلي عن هدف الفلسفة الأولى السابقة على العلم الطبيعي[24].

ولو نظرنا إلى هذه المعالم الخمسة، لوجدنا أن كواين قد ورث عن أسلافه المعْلَمَين الأول والثاني، وأضاف هو المعالم الثلاثة الباقية. وكانت التجريبية البريطانية عند لوك وهيوم تؤكد على القضية القائلة إن الحس وحده هو المعقول، وإن الأفكار لا تكون مقبولة إلا إذا تأسست على انطباعات حسية. ولكن التجريبية المعاصرة حوّلت التركيز من الأفكار التي هي ذاتية إلى اللغة التي هي بين ذاتية. أما المعْلَم الثاني فقدمه جيرمي بنتام (1748 ـ 1832) واعتنقه فريجه ورسل، إذ أدركوا جميعاً أن الوسيلة الأساسية للمعنى هي الجملة وليست الكلمة؛ وتجلّت هذه الصدارة الدلالية للجمل في نظرية التحقق في المعنى التي تحفل بمعنى الجمل أحرى مما تحفل بمعنى الكلمات على النحو الذي أوضحناه، ويمكن أن نقول الشيء نفسه عن فلسفة اللغة العادية عند مدرسة أكسفورد التي صبّ فلاسفته تحليلاتهم على العبارات أكثر من الكلمات.

وفي سنة 1951 نشر كواين مقالته المشهورة **عقيدتان للتجريبية**، والعقيدة الأولى هي الاعتقاد بوجود تمييز أساسي وصارم بين العبارات التحليلية والعبارات التركيبية، والعقيدة الثانية هي النزعة الردّية reductionism، أي الاعتقاد بأن كل عبارة ذات معنى تكون مكافئة لبناء منطقي معيّن على حدود تشير إلى خبرة مباشرة، وهجوم كواين العنيف على هاتين العقيدتين هو الذي وضع النهاية لحركة الوضعية المنطقية.

والحق أن نقد كواين لفلسفة الوضعية المنطقية يرجع إلى التاريخ الذي حضر فيه لقاءات جماعة فينا، ويمكن أن نلتمس هذا عند «أير» الذي يقول: «ولم تسمح الدائرة لكثير من الزائرين بحضور اجتماعاتها، بيد أن الشخص الذي حضر هذه الاجتماعات في الوقت الذي حضرتها أنا فيه هو كواين... وكان كواين ناقداً أكثر مني لأفكار الدائرة، ولقد أثار بالفعل بعض الاعتراضات الحادة على تقريرها عن الحقائق الأولية في مقالته «الصدق بالمواضعة»[25] سنة 1936.

ويُعدّ التمييز بين ما هو تحليلي وما هو تركيبي ملمحاً هاماً من ملامح الفلسفة التحليلية، ولعلنا لا نجانب الصواب إذا قلنا إنه الملمح الأساسي الذي لا ترتبط به الملامح الأخرى فحسب، بل وتنتج عنه أيضاً، ومن قبيل هذه الملامح الأخرى القول بأن الفلسفة علمية، والقول بأن الميتافيزيقا لغو. ولم يكد يفرغ كواين ومورتن وايت ونيلسون جودمان من نقدهم للتمييز التحليلي ـ التركيبي، حتى أخذ الفلاسفة والباحثون يتعمّقون مشكلة التحليلية ويقدمون المحاولة تلو الأخرى للدفاع عن التمييز تارة ونقده تارة أخرى.

واستناداً إلى تصنيف ماتيس[26] لتعريفات العبارة التحليلية يمكن القول بأن:

1 ـ العبارة التحليلية هي التي تكون صادقة في جميع العوالم الممكنة، أو صادقة بالضرورة.

2 ـ العبارة التحليلية هي التي لا يمكن أن تكون كاذبة مهما حدث.

3 ـ العبارة التحليلية هي التي تكون صادقة بمقتضى معاني كلماتها وبشكل مستقل عن الواقع.

---

(24) Quine, W.V.: **Theories and Things,** second printing, Cambridge, Massachusetts: Harvard University Press, 1982, p. 67.

(25) Ayer, A.J.: **Philosophy in the Twentieth Century,** p. 139.

(26) Mates, B.: «Analytic Sentences», **The Philosophical Review,** vol. LX, No. 4, 1951, p. 525.

4 ـ العبارة التحليلية هي التي تكون حقيقة منطقية أو يمكن تحويلها إلى حقيقة منطقية عن طريق التعريف أو بوضع مرادفات بدلاً من مرادفات.

5 ـ العبارة التحليلية هي التي تكون صادقة في اللغة (ل) وفقاً لقواعدها الدلالية. واللغة (ل) هنا رمز للغة اصطناعية معيّنة يحاول الفيلسوف ابتكارها لتفادي الغموض الذي تعاني منه اللغة الطبيعية، ومن أبرز هذه المحاولات محاولة كارناب في كتابه **المعنى والضرورة**.

والحق أن تعريف العبارة التحليلية اعتماداً على الظرف «بالضرورة» ونظيره «مهما حدث» يدخل في إطار منطق الجهة الذي يرفضه كواين لأسباب منطقية[27].

وفي ما يتعلق بالتعريف الخامس، يظهر السؤال: هل نجح كارناب بالفعل في توضيح التحليلية بالنسبة للغة الاصطناعية؟ اقترح كارناب أن الجملة س تكون تحليلية في ل 5 (رمز للغة الاصطناعية) في حالة واحدة فقط وهي إذا تمّ إثبات صدق س على أساس القواعد الدلالية وحدها، ومن غير إشارة إلى حقائق غير لغوية[28]، ولكن كواين يعترض على هذه الفكرة اعتراضاً مؤداه أنها دائرية، فنراه يقول: تخبرنا القواعد أن العبارات كيت وكيت، وتلك العبارات فقط، تكون تحليلية في ل 5، والصعوبة هنا الآن هي ببساطة أن القواعد تتضمن كلمة «تحليلية» التي لا نفهمها، فنحن نفهم التعبيرات التي تسند القواعد صفة التحليلية إليها، ولكننا لا نفهم ما الذي تسنده القواعد لهذه التعبيرات، وباختصار قبل أن نستطيع فهم القاعدة التي تبدأ بـ «العبارة (ع) تكون تحليلية بالنسبة إلى اللغة ل 5 في حالة واحدة وهي... «يجب أن نفهم المصطلح النسبي العام (تحليلي بالنسبة إلى...)»[29].

ويعارض كواين تعريف التحليلية في حدود المعنى وبخاصة إذا فهم المعنى في إطار علم الدلالة العقلي mental semantics الذي يرفض مصطلحاته باعتبارها غير علمية، وأحد مسوغاته لهذا الرفض هو تعذُّر تأسيس هذه المصطلحات على سلوك المتكلم ونماذج الإثارة؛ وهناك ثلاثة جوانب على الأقل يهاجم كواين من خلالها مفهوم المعنى كما يقدمه علم الدلالة العقلي، الأول هو رفض المعاني من حيث هي أفكار أو صور ذهنية، والثاني هو استبعاد المعاني بوصفها تمثّل عالماً خاصاً من الكائنات، والثالث هو أننا لو عهدنا بأية مهمة تفسيرية إلى المعنى من المنظور العقلي فلا يمكن أن يؤديها بنجاح؛ وعندما ينظر كواين إلى التمييز التحليلي ـ التركيبي من خلال مذهبه السلوكي في اللغة والمعنى، يدرك على الفور أنه تمييز مخفق «يخفق التمييز حالما نحاول تأسيسه على السلوك اللفظي... والنقص الذي يبطل الفكرة... (هو أنها) تجريبية بصورة غير كافية تماماً... وتنظر السلوكية بارتياب إلى التحليلية»[30].

على أن كواين عاد وعالج مشكلة التحليلية من منظور عملية التعلّم في كتابه **جذور الإشارة** سنة 1974، وهي معالجة تتّسم، على الرغم من إيجازها، بقدر كبير من التسامح إزاء هذه المشكلة إذا ما قورنت بمحاولاته السابقة لبحثها، فنرى كواين يجيز وصف الجملة بأنها تحليلية، ولتوضيح ذلك يذهب إلى أننا نتعلّم فهم الجمل الإخبارية واستعمالها عن طريق تعلّم شروط صدق هذه

---

(27) أنظر للمؤلف: **فلسفة اللغة والمنطق عند كواين**، رسالة دكتوراه، إشراف الأستاذ الدكتور محمد مهران، كلية الآداب، جامعة القاهرة، 1993، ص 412 ـ 419.

(28) Carnap, R.: **Meaning and Necessity,** Chicago: University of Chicago Press, 1956, p. 10.

(29) Quine, W.V.: **From a Logical Point of View,** second edition, New York and Evanston: Harper Torch Books, 1963, p. 33.

(30) Quine, W.V.: «Philosophical Progress in Language Theory», **Metaphilosophy,** 1, 1970, pp. 6-7.

الجمل، وهذا واضح في تعلم اللغة المبكرة، أي تعلم جمل الملاحظة، طالما أن هذا التعلم هو ببساطة مسألة تعلم الظروف التي تعد هذه الجمل صادقة فيها، وليس الحال هكذا مع الجمل الثابتة مثل «الثلج أبيض» لأن قيمة صدق الجملة الثابتة لا تتغيّر بتغيّر الظروف؛ ومع ذلك فإن تعلم الجملة «الكلب حيوان» يكمن في تعلم الموافقة عليها، ويتوقف هذا على صدق الجملة، إنه يتوقف على تعلّمنا الموافقة على «كلب» فقط في الظروف التي تعلّمنا فيها الموافقة على «حيوان»؛ وإذا تعلّمنا استعمال الجملة «الكلب حيوان» وفهمها، فقد تعلّمنا في الوقت نفسه الموافقة عليها أو اعتبارها صادقة. ويرى كواين أنه من المعقول، عندما نستحضر الفكرة الخلافية عن التحليلية، القول بأن الجملة «الكلب حيوان» تحليلية عن طريق هذا التقرير، لأن تعلم فهمها هو تعلم أنها صادقة، ومن خلال عملية التعلم هذه يمكن تقديم تصور للتحليلية على النحو الآتي: «اللغة اجتماعية، والتحليلية بكونها الصدق المؤسس في اللغة يجب أن تكون اجتماعية كذلك، وهنا إذن ربما نملك على الأقل اتجاهاً في مفهوم التحليلية: تكون الجملة تحليلية لو تعلم كل شخص أنها صادقة عن طريق تعلم كلماتها»[31]. بيد أن كواين يرى أن هذه الصياغة تحتاج إلى تهذيب مؤداه أننا يجب أن نقصر الناس على أولئك الذين يستعملون اللغة بوصفها لغة أم أو لغة أولى، ومن ثم يمكن أن نعيد تعريف كواين على ضوء هذا التهذيب: تكون الجملة تحليلية لو تعلم «كل شخص» في لغته الأم أنها صادقة عن طريق تعلم كلماتها؛ ولكن هذه الرؤية المعدلة للتحليلية لا تعني أن كواين أصبح يسلم بالتمييز الصارم بين ما هو تحليلي وما هو تركيبي، وإنما تعني إفساح المجال «لتمييز تقريبي» فحسب.

أسلفنا الإشارة إلى أن كواين وجّه نقداً عنيفاً لعقيدتين تسلّم بهما التجريبية المنطقية أو الوضعية المنطقية، وعرضنا هجومه على العقيدة الأولى المتمثلة في التسليم بوجود تمييز صارم بين العبارات التحليلية والتركيبية، وبقي لنا أن نعرض نقده للعقيدة الثانية وهي النزعة الردية. يرى كواين أنه على الرغم من تنازل كارناب عن النزعة الردية الجذرية، فإن عقيدة النزعة الردية واصلت تأثيرها على الفلاسفة التجريبيين وبقيت الفكرة القائلة: «بالنسبة لكل عبارة أو كل عبارة تركيبية، يوجد مجال وحيد من الحوادث الحسيّة التي سيضيف ظهور أية حادثة منها ترجيحاً لصدق العبارة، وهناك مجال وحيد أيضاً من الحوادث الحسية الممكنة التي سيقلّل ظهورها من هذا الترجيح، وهذه الفكرة متضمنة بطبيعة الحال في نظرية التحقق في المعنى؛ وتواصل عقيدة النزعة الردية البقاء في الافتراض الذي مؤداه أن كل عبارة، مأخوذة بمعزل عن أترابها، يمكن أن تقبل الإثبات أو اللاإثبات على الإطلاق، واقتراحي المضاد... هو أن عباراتنا حول العالم الخارجي تواجه محكمة الخبرة الحسية ليس على انفراد بل فقط كجسم متحد»[32]. وعلى هذا النحو يزعم كواين أن مناهج التأييد في العلم لا يمكن ربطها بالجمل الفرادى، كما يتطلب مبدأ التحقق، وإنما يعتقد أن الجمل يمكن تأييدها أو تفنيدها في سياق النظرية ككل، وهذه هي النزعة الكلية Holism التي تتجلّى في المعْلَم الثالث من معالم التجريبية ألا وهو تحوّل المركز الدلالي من الجمل إلى أنساق الجمل.

وبالإضافة إلى الأفكار السابقة يمكن تصنيف فلسفة اللغة عند كواين إلى اتجاهين على وجه التقريب، الأول يغلب عليه نقد المواقف الفلسفية التي يرى كواين أنها لا تقدم فهماً أوضح وأفضل لكيفية دراسة اللغة والمشكلات الدلالية، وصبّ جلّ نقده على التناول العقلي للّغة وعلم الدلالة

---

(31) Quine, W.V.: **The Roots of Reference,** La Salle, Illinois: Open Court, 1974, p. 79.

(32) Quine, W.V.: **From a Logical Point of View,** pp. 40-41.

العقلي. وفي الاتجاه الثاني ظهرت أفكار كواين المتميزة والتي أخذ فيها بالنزعة التجريبية ـ السلوكية في دراسة اللغة واكتسابها والمسائل المتعلقة بها مثل المعنى الإشارة والصدق.

أسلفنا الإشارة إلى ثلاثة جوانب يهاجم كواين من خلالها مفهوم المعنى الذي يقدمه علم الدلالة العقلي، ونضيف إليها جانباً رابعاً يتمثّل في دعوى اللاتحديد في الترجمة، والحق أن الفلاسفة قد دأبوا على الحديث عن المعاني كما لو كانت مرتبطة بالتعبيرات بنفس الطريقة التي ترتبط بها الصور الزيتية بلافتاتها في متحف، ويسمي كواين هذا «بأسطورة المتحف» The myth of the museum إذ يقول: «وعلم الدلالة غير النقدي هو أسطورة المتحف الذي تكون الأشياء المعروضة فيه هي المعاني والكلمات هي اللافتات»[33]. وتبعاً لهذه الوجهة من النظر يكون التعبيران «مترادفين» عندما يرتبطان بمعنى وحيد؛ وإذا نظرنا إلى الترادف من زاوية الترجمة، وجدنا أن هناك تصوّراً مؤداه أن الجملة (أ) لها معنى في لغة معيّنة، وأن الجملة (ب) في لغة أخرى تكون ترجمة لها إذا كان لها نفس المعنى، ولكن كواين يعترض على هذا ويرى أن السؤال عما إذا كانت الجملة (ب) لها نفس معنى الجملة (أ) لا يقبل إجابة محدّدة، ويرجع ذلك إلى أمرين: أولهما أن الترجمة غير محددة تجريبياً، إذ يمكن ترجمة اللغة الواحدة إلى لغة أخرى بطرائق متعددة، ولا تنسجم أية طريقة منها مع الأخرى ومع ذلك تكون منسجمة مع كل الوقائع الخاصة باستعدادات المتكلمين للسلوك اللفظي، وثانيهما أن الاختيار بين الترجمات البديلة لا يتضمن أية حقيقة موضوعية بحيث يكون صحيحاً أو خاطئاً بالقياس إليها.

وإذا كان كواين يرى أن فكرة المعنى تبعاً للتفسير العقلي تفضي بنا إلى الخلط والتضليل، فإنه يستبعدها ويستبقي فكرتين انبهمت معالمهما داخل التفسير العقلي هما فهم التعبير وتكافؤ التعبير، ويفسّرهما تفسيراً سلوكياً، وعندما نتناول الفهم نجد أنه يقدم له معياراً مؤداه أن الإنسان يفهم الجملة بقدر ما يعرف شروط صدقها، وتكمن معرفة الإنسان لشروط صدق الجملة «هذا أحمر»، مثلاً، في الاستعداد للموافقة أو المعارضة عندما نسأل «هل هذا أحمر؟» في حضور شيء أحمر أو في غيابه، ومنهج التساؤل والموافقة والتساؤل والمعارضة هو هنا بمثابة الحل الذي يردّ الفهم إلى الاستعداد اللفظي؛ وفي ما يتعلق بالتكافؤ نجد أن الذي يربط الجملة بما يكافئها هو ببساطة تطابق الاستعدادات، أي نكون على استعداد للموافقة على الجملتين معاً في الظروف نفسها[34].

وإذا كان فتجنشتين قد أكّد على ضرورة التماس معنى الكلمة في استعمالها، وقرّر ديوي قبل ذلك هذه الفكرة عندما ذهب إلى أن المعنى هو في المقام خاصية للسلوك، فإن كواين يمضي في هذا الاتجاه مؤكداً أن الاستعمال هو الموضع الذي ينظر إليه عالم الدلالة التجريبي. وعلى أساس مفهوم الاستعمال نظر كواين إلى علاقة الترادف أو تماثل المعنى على أنها تماثل الاستعمال، ولكنه ركّز على فكرة أكثر أهمية من ترادف الكلمات وهي التكافؤ الدلالي semantical equivalence لجمل كاملة، وتكون الجمل متكافئة دلالياً لو كانت متماثلة في الاستعمال؛ ولكنّ بواعث نطق الجمل يمكن أن تتنوع، فربما يريد المتكلم أن يأمر أو يعزّي أو يسلّي وهَلُمَّ جرّاً، ولو أخذنا في تأمل هذه البواعث لانتهى بنا الأمر إلى بحث الأفكار المفهومية مثل «القصد» الذي يريده المتكلم، أو «الفكرة»

---

(33) Quine, W.V.: **Ontological Relativity and Other Essay:** New York and London: Columbia University Press, 1969, p. 27.

(34) Quine, W.V.: «Mind and Verbal Dispositions» in: S. Guttenplan, ed., **Mind and Language,** Oxford: Clarendon Press, 1975, pp. 87-88.

وترجمت هذه المقالة ضمن رسالتي للدكتوراه المشار إليها آنفاً.

التي توجد في ذهنه عندما ينطق الجملة، أو «الانفصال» الذي يحسّ به، وهي أفكار ينحيها كواين جانباً عند مناقشة المعنى، ويقرّر أننا نستطيع اجتناب البحث في البواعث لو قصرنا اهتمامنا على التكافؤ المعرفي cognitive equivalence للجمل، أي تماثل شروط الصدق Sameness of truth conditions، وسوف تحظى الجمل المتكافئة معرفياً بأحكام متماثلة[35].

ولعلنا نلاحظ أن تصور كواين للترادف المعرفي يعد مكملاً لتصوره السلوكي لفهم التعبير وتكافؤ التعبير، لأنه إذا كان قد قدم معياراً للفهم، مثلاً، يقول بأننا نفهم التعبير بقدر ما نعرف شروط صدقه، فإنه يؤسس الترادف المعرفي على التكافؤ المعرفي، أي تماثل شروط الصدق؛ فالصدق هو حجر الأساس في الحالتين. ويمكن أن نخلص من هذا إلى نتيجة مؤداها أن كواين لم يتحوّل عن فكرته الأساسية في علم الدلالة وهي ردّ، وإن شئت كلمة أخف حدّة قلْ جنب، نظرية المعنى وأفكارها إلى نظرية الإشارة وأفكارها؛ وليس من شكّ في أن كواين يحاول معالجة مشكلة المعنى معالجة علمية، أي يناقشها داخل إطار معرفي يمكن التحقق من عناصره؛ وهو حينما يهتم بالمعنى فإنه يضع نصب عينيه دائماً الدور الذي يمكن أن يؤديه المعنى في التقرير العلمي التفسيري للعالم، وذلك على أساس نظرته للفلسفة باعتبارها متصلة بالعلم أو بوصفها جزءاً منه؛ وإذا كان الأمر كذلك، فلا عجب أن يكون المعنى عند كواين هو «المعنى المعرفي»؛ ولكن هذا التصور للمعنى لا يتعلق إلا بجانب واحد من جوانب اللغة وهو الجانب المعرفي أو لغة العلم، ولا يقدم شيئاً للجوانب الأخرى من اللغة مثل الجوانب الانفعالية والأدبية وغيرها، ومن ثم فهو تصور محدود.

وفي مجرى الاتجاه الأول تبرز فلسفة دونالد ديفيدسون التابع المخلص لكواين الذي يطور أفكاره ويمضي بها إلى آفاق لم تخطر لكواين على بال. وفلسفة اللغة عند ديفيدسون ثرية ولا يتّسع المقام للخوض فيها بشيء من التفصيل وحسبنا أن نشير إلى إحدى أفكارها الهامة وهي فكرة المعنى وعلاقته بالصدق، إذ نراه يحاول إثبات أن هناك علاقة حميمة بين المعنى والصدق وذلك في غير موضع من كتاباته التي تأتي في مقدمتها مقالة **الصدق والمعنى** سنة 1967. والحق أن هناك فكرة تتدفق في نهر الفلسفة منذ فريجه مؤداها أن معنى الجملة يمكن تقديمه عن طريق تعيين الشروط التي تكون هذه الجملة صادقة بمقتضاها، وتمسّك بهذه الفكرة، بالإضافة إلى فريجه، فتجنشتين المبكر وكارناب وكواين، ثم يأتي ديفيدسون ليكون نصيرها الأكبر، وقدم فتجنشتين تعبيراً واضحاً عن هذه الفكرة في «الرسالة» عندما قال: «ولأن نفهم معنى قضية ما، هو أن نعرف ما هنالك إذا كانت صادقة»[36]، ووضع كارناب في كتاباته المتأخرة عبارة تكشف عن تلك الفكرة أيضاً، وهي العبارة القائلة: «لأن نعرف معنى الجملة هو أن نعرف الحالات الممكنة التي ستكون فيها صادقة والحالات التي لا تكون كذلك»[37].

وهناك نقطة ألمحنا إليها عند بيان اهتمام الميتافيزيقا باللغة وتجلّت أيضاً في النظرية التصويرية للغة عند فتجنشتين ألا وهي أن المرء عندما يفحص بنية اللغة فإنه يفحص بنية العالم، ويوضح ديفيدسون هذه النقطة بقوله: «عندما نشارك في اللغة، بأي مغزى مطلوب للتواصل، فإننا نشارك في صورة للعالم يتعيّن أن تكون صادقة في ملامحها الواسعة، ويلزم عن هذا أنه بإظهار الملامح الواسعة في لغتنا، فإننا نظهر الملامح الواسعة في الواقع»[38]، وتبعاً لذلك يرى ديفيدسون أن الشيء

---

(35) Quine, W.V.: **Theories and Things,** pp. 47-48.

(36) لودفيج فتجنشتين: **رسالة منطقية فلسفية**، ترجمة عزمي إسلام، فقرة 4,024، ص 86.

(37) Carna, R.: **Meaning and Necessity,** p. 10.

(38) Davidson, D.: **Inquiries into Truth and Interpretation,** Oxford: Clarendon Press, 1984, p. 199.

الذي يجب علينا العناية به في اللغة، إذا شئنا أن نقدم ملامح عامة للعالم، هو ما يوجد بشكل عام بالنسبة لجملة في اللغة بحيث تكون صادقة[39].

ويذهب ديفيدسون إلى أن أية نظرية في المعنى يجب أن تستوفي بعض الشروط مثل:

1 ـ يجب أن تقدّم المعنى لكل جملة في الطبيعية التي ندرسها (ولتكن س).

2 ـ يجب أن تبيّن كيف تتركب الجمل في (س) تركيباً دلالياً من مخزون من كلمات (س) عن طريق قواعد (س) لربط هذه الكلمات.

3 ـ يجب أن تبيّن أن برهانها على الكيفية التي تعنى بها الجمل في (س) يكون مؤسساً على نفس مخزون المفاهيم الذي تتأسس عليه جمل (س) ذاتها.

4 ـ يجب أن تكون قابلة للاختبار تجريبياً[40].

ويؤكد ديفيدسون أن أية نظرية مقنعة في المعنى يتعيّن عليها أن تقدّم تقريراً حول اعتماد معاني الجمل في (س) على معاني الكلمات المكونة لها، وما لم يتم تقديم مثل هذا التقرير، فلا يوجد تفسير للحقيقة القائلة بأن المرء يستطيع تعلم (س)، ولا يوجد تفسير للحقيقة القائلة بأن الشخص عندما يتمكن من فهم ثروة لفظية متناهية ومجموعة محدّدة بشكل متناوٍ من القواعد، يكون على استعداد لإنتاج أي عدد لا متناوٍ من الجمل وفهمه[41].

وتأتي كتابات مور وفتجنشتين المتأخر وفلاسفة مدرسة أكسفورد في مقدمة ما يمثل الاتجاه الثاني في فلسفة اللغة المعاصرة، والذي يركز جلّ عنايته على العلاقة بين اللغة والمتكلم، ويهتم بأسئلة تختص بقصد المتكلم من وراء استعماله للغة، وباللغة من حيث هي جزء من السلوك الإنساني. والحق أن المتأمل في كتابات مور الأخلاقية والإبستمولوجية يجد أنه قد أعطى أولوية للأحكام والاستعمالات العادية على المبادىء الفلسفية، إذ يشير عند مناقشته لأية نظرية إلى أن الاستعمال العادي للتعبيرات هو المعيار الملائم للأغراض الفلسفية، وأن التخلي عنه يفضي إلى مشكلات لا سبيل إلى حلها، أو يؤدي إلى القول بأفكار لا حظّ لها من الصحة. ولو شئنا الدقة لقلنا إن مور لم يكن مهتماً بالاستعمال العادي من حيث هو كذلك، وإنما اهتم به لغرض محدد ألا وهو الدفاع عن وجهة نظر الحس المشترك Common Sense الذي يعني الفهم العام أو المعتقدات المشتركة بين الناس وهي اعتقادات بسيطة غاية البساطة من قبيل اعتقادنا بأن الماء يروي الظمأ؛ وإذا كان بعض الفلاسفة قد قالوا بأفكار تتعارض مع الحس المشترك مثل زعم باركلي بأن الأشياء الفيزيائية توجد فقط عندما ندركها تبعاً لمبدئه القائل «الوجود إدراك» أي وجود الشيء قائم في إدراكه، فإن مور يهاجم هؤلاء الفلاسفة ويؤكد أن القضايا التي أنكرتها المذاهب المثالية صادقة باعترافنا جميعاً لأننا عرفناها بالحس المشترك.

على أن تأثير فتجنشتين المتأخر في فلاسفة الاتجاه الثاني فاق بكثير تأثير مور وغيره فيهم: فقد تخلّى فتجنشتين المتأخر عن مجموعة كبيرة من الأفكار التي نادى بها في «الرسالة»، ومن أبرزها الفكرة القائلة إن الإسم يعني الشيء والشيء هو معناه، ونقد في بداية **البحوث الفلسفية** وجهة النظر التي مؤداها إن معنى أية كلمة هو الشيء الذي تمثله أو تشير إليه، إذ إن هذه الوجهة من

---

(39) Ibid., p. 201.

(40) Ibid., p. 23, 27.

(41) Ibid., p. 17.

النظر لا تكشف إلاّ عن جانب واحد من جوانب اللغة المتعددة وهو التسمية، ومن ثم فهي قاصرة.

وعندما حاول فتجنشتين المتأخر أن يتغلب على هذا القصور عثر على حيلة جديدة هي «ألعاب اللغة» Language-Games، ويقدم قائمة يدعونا فيها إلى تأمل كثرة هذه الألعاب في الأمثلة الآتية: إصدار الأوامر والامتثال لها، ووصف المظهر الخارجي لشيء معيّن، وتقديم تقرير عن حادثة، وتأليف النكات وسردها، والتساؤل، والسب، والترحيب، والتوسل[42].

وإذا كان فتجنشتين قد شغل نفسه في تفكيره المبكر بالبحث عن «الصورة العامة» للقضايا واللغة، فإنه يتخلّى عن ذلك في تفكيره المتأخر، وبدلاً من البحث عن شيء واحد مشترك بين كل ما نسميه لغة، نراه يقرر أن الأشكال المنوعة للغة ترتبط بطرائق كثيرة متباينة، ويحاول البرهنة على أنه لا يوجد قاسم مشترك بين كل الفعاليات التي نسميها باسم «الألعاب»، وإنما توجد بين الألعاب المتباينة شبكة معقدة من التشابهات تذكّرنا بالتشابهات بين أفراد العائلة.

ويوضح فتجنشتين هذه الفكرة عندما يدعونا إلى النظر إلى الألعاب ذات اللوحة الخشبية، وألعاب الورق، وألعاب الكرة وهَلُمَّ جرّاً، ويتساءل ما هو القاسم المشترك بينها جميعاً؟ والجواب لا يوجد قاسم مشترك بينها وإنما توجد بينها تشابهات وعلاقات؛ فإذا نظرت إلى الألعاب ذات اللوحة الخشبية ثم انتقلت إلى ألعاب الكرة تجد أن الألعاب الأولى تشترك مع الثانية في ملامح معيّنة وتختلف عنها في ملامح أخرى، فهل كل الألعاب مسلّية؟ وهل يوجد دائماً فوز وهزيمة؟ إن ألعاب الكرة فيها فوز وهزيمة، ولكن عندما يقذف الطفل كرته نحو الحائط ويمسك بها مرة ثانية، يتلاشى ملمح الفوز والهزيمة، والنتيجة التي نخلص إليها من كل هذا هي أننا نرى شبكة معقدة من التشابهات تتداخل وتتشابك[43]؛ ولكن ما هو أفضل تعبير يمكن أن نصف به هذه التشابهات المتداخلة المتشابكة؟ الجواب عند فتجنشتين: «تشابهات العائلة» Family Resemblances، وسبب ذلك هو أن التشابهات المتنوعة بين أفراد العائلة في البنية، والصورة، ولون العيون، وطريقة المشي وهَلُمَّ جرّاً تتداخل وتتشابك بالطريقة التي تتشابك بها تشابهات الألعاب، ومن ثم فإن الألعاب تؤلف عائلة[44]، فإذا سألت عما أراد إليه فتجنشتين من تعبير لعبة اللغة، فإنه يجيبك أنه أراد به إبراز الحقيقة القائلة إن تكلم اللغة جزء من «صورة الحياة» Form of Life[45]. وبذلك يؤكد فتجنشتين على أن تكلم اللغة يعد ضرباً من الفاعلية الاجتماعية، وهذا يعني التمسك بالسمة الاجتماعية للغة والقول باستحالة اللغة الخاصة، وهي وجهة نظر يشترك فيها مع فتجنشتين ديوي وكولين ومن جرى مجراهم.

وإلى جانب تشبيه «اللغة» يقدم فتجنشتين تشبيهاً آخر هو «الأداة» Tool، على أساس أن اللغة فاعلية تعتمد على استعمال الكلمات كأدوات، فبقدر ما تتنوع وظائف الأدوات لدى النجار، مثلاً، تتنوع وظائف الكلمات لدى مستعمل اللغة، فنراه يقول: تأمل الأدوات الموجودة في الصندوق، توجد مطرقة، وزرادية، ومنشار، ومفك، ومسطرة، ووعاء الغراء، وغراء، ومسامير، ورزات، وتتنوع وظائف الكلمات مثلما تتنوع وظائف هذه الأشياء (وهناك تشابهات في الحالتين)؛ وبطبيعة الحال، فإن ما يوقعنا في براثن الحيرة هو المظهر المتسق للكلمات عندما نسمعها منطوقة أو نجدها مكتوبة أو

---

(42) Wittgenstein, L.: **Philosophical Investigations**, translated by G.E.M. Anscombe, Oxford: Basil Blackwell, 1963, part 1, sec. 23, p. 11.

(43) Ibid., part 1, sec. 66, pp. 31-32.

(44) Ibid., part 1, sec. 67, p. 32.

(45) Ibid., part 1, sec. 23, p. 11.

مطبوعة، نظراً لأن تطبيقها لم يتم تقديمه لنا هكذا، وبخاصة عندما نتفلسف!»[46].

وبعد أن يفيض فتجنشتين في الحديث عن اللغة بوصفها لعبة أحياناً، أو باعتبارها أداة أحياناً أخرى، نراه يخلص إلى نتيجة خطيرة ويسيرة مؤداها أن معنى الكلمة هو استعمالها في اللغة التي تقوم الكلمة بدور فيها، ويقول: «في ما يتعلق بطائفة كبيرة من الحالات ـ وليس جميعها ـ التي تستعمل فيها كلمة معنى، يمكن أن يتم تحديدها هكذا: معنى الكلمة هو استعمالها في اللغة»[47].

إن التغيّر الذي طرأ على فلسفة فتجنشتين جاء في جانبه الأكبر نتيجة لرفض أفكار فريجه التي قبلها فتجنشتين المبكر، فقد تخلّى فتجنشتين المتأخر عن نظرية فريجه في المعنى التي تنظر إلى المعاني بوصفها صوراً موضوعية للواقع، وقال بدلاً من ذلك بنظرية الاستعمال في المعنى، كما تخلى فتجنشتين عن فكرة فريجه عن الصورة المنطقية باعتبارها شيئاً مستوراً تحت السطح النحوي للجمل، وأكّد في مقابل ذلك أن المعنى ليس شيئاً مستوراً تحت النحو السطحي للجمل، وإنما هو مسألة خارجية نلتمسها في الاستعمال العادي للكلمات؛ زد على ذلك أن فتجنشتين رفض وجهة نظر فريجه في اللغة الكاملة منطقياً والتي تتمتع بقواعد صورية ينظر إليها على أنها عوامل محدّدة للمعنى، وذهب بدلاً من ذلك إلى أن اللغة العادية صحيحة تماماً من حيث هي كذلك، وتحلّ طرائق استعمالها في الحياة اليومية محل القواعد الصورية في الحساب المنطقي.

لقد قدّم فتجنشتين في الجزء الأول من كتابه **بحوث فلسفية** نقداً للنظريات الفلسفية في المعنى بما في ذلك نظريته المبكرة، وأراد بذلك أن يكشف عن دور النظريات في حالات الارتباك الفلسفي حول اللغة والمعنى، وليفسح المجال أمام تصوره للمعنى في حدود الاستعمال، وأتاح له ذلك النقد أن يستبعد وجهة النظر التقليدية في الفلسفة باعتبارها بحثاً عن «الماهيّات المجرّدة» ويحلّ محلها وجهة النظر الجديدة عن الفلسفة بوصفها تحلّ المشكلات الفلسفية عن طريق إظهار كيفية ظهورها كنتيجة لسوء الاستعمال الذي يجعلنا نضلّ في متاهة قواعدنا الخاصة، فالمشكلات الميتافيزيقية تنشأ عندما نستعمل الكلمات خارج ألعاب اللغة، وإن شئت قل عندما نأخذها بعيداً عن «مسكنها الأصلي» في الاستعمال العادي؛ فلا توجد مشكلة في وضع قواعد اللعبة أو اللغة، وإنما تنشأ المشكلة عندما نأخذ في تطبيق هذه القواعد، لأن الأمور تسير على نحو غير الذي افترضناه، إذ نبتكر قواعد خاصة بنا لا تفضي إلى شيء سوى الحيرة والارتباك؛ ولو أمعنت النظر في مؤلفات الفلاسفة الميتافيزيقيين، لوجدت أنهم يستعملون كلمات من قبيل «معرفة» و «وجود» استعمالاً ينقلها من مجال الاستعمال العادي المألوف إلى مجال آخر تكون نتيجته اللبس والغموض والمفارقات اللفظية، ولكي نتغلب على ذلك يدعونا فتجنشتين إلى إعادة الكلمات من استعمالها الميتافيزيقي إلى موضعها الأصلي، أي استعمالها العادي، وعلى هذا النحو تصبح مهمة الفلسفة «علاجاً» للحيرة والخلط الناشىء عن سوء استخدام اللغة.

ميّز فلاسفة الوضعية المنطقية، كما أسلفنا الإشارة، بين وظيفتين أساسيتين للغة، إحداهما هي الوظيفة المعرفية، وتقوم اللغة فيها بوصف الواقع وتتجلّى في العبارات الإخبارية التي تحتمل الصدق والكذب، وتكون وحدها ذوات المعنى. والأخرى هي الوظيفة غير المعرفية، وتظهر في عبارات الأخلاق والجمال والميتافيزيقا وغيرها. وذهب هؤلاء الفلاسفة إلى أن الوظيفة المشروعة بالنسبة للبحث الفلسفي والجديرة بعناية الفيلسوف هي الوصف. وهنا جاء فلاسفة أكسفورد ليثبتوا خطأ

---

(46) Ibid., part 1, sec. 11, p. 6.

(47) Ibid., part 1, sec. 43, p. 20.

هذه الوجهة من النظر، لأن النظر إلى اللغة ووظيفتها على هذا النحو يمثّل ما أسماه أوستن «المغالطة الوصفية» Descriptive Fallacy[48]، إذ ما الذي يمكن أن نفعله بالعبارات الأخرى التي لا تصف الواقع، ولا تتعلق بالصدق أو الكذب، ماذا نحن فاعلون بالجمل الطلبية (بالأمر والنهي) والجمل الاستفهامية وغيرها، هل يمكن الحكم عليها بأنها خالية من المعنى؟ إن كتابات فلاسفة أكسفورد، على الرغم من تنوّعها، تمثّل في جانب كبير منها محاولة لدحض المغالطة الوصفية، ويتضح هذا من مقال ستراوسون **في الإشارة** الذي ردّ فيه على نظرية الأوصاف المحددة عند رسل، وحاول إثبات أن رسل قد أخطأ في جانبين على الأقل: «أولاً، لم يستطع أن يدرك أن الجملة يمكن أن يكون لها مجموعة منوعة من الاستعمالات؛ ثانياً، اعتقد بصورة خاطئة أن كل جملة ذات معنى لا بد من أن تكون صادقة أو كاذبة»[49].

على أن الرد الأساسي والمباشر على المغالطة الوصفية يتمثّل في نظرية الفعل الكلامي speach act theory عند أوستن الذي عمد إلى الكشف عن التعارض بين نوعين من المنطوقات: الأول هو المنطوقات التقريرية، والثاني يتشابه مع الأول تشابهاً ظاهرياً في التركيب، ولكنه لا يصف الواقع كما يصفه الأول، ومع ذلك لا يمكن الزعم بأن المنطوقات الداخلة فيه خالية من المعنى، وبعض أمثلتها هي[50]:

1 ـ إنني أقبل هذه المرأة لتكون لي زوجة شرعية.

2 ـ إنني أُسمّي هذا المسجد باسم مسجد عمر بن عبد العزيز.

3 ـ إنني أهب وأورث مكتبتي لتلميذي.

فالمنطوق الأول يتم التلفظ به عند الزواج، والثاني عند تسمية المباني، والثالث عند التوصية. وواضح أن هذه المنطوقات ليست خالية من المعنى، بل هي ذوات معنى، ومع ذلك فإنها:

(أ) لا تصف أي شيء على الإطلاق أو تقرره أو تثبته، وليست صادقة أو كاذبة.

(ب) يعتبر النطق بالجملة أداءً لفعل، ومن ناحية ثانية لا يوصف بصورة عادية على أنه قول لشيء ما[51].

ويسمي أوستن هذا النمط من الجمل باسم الجمل الأدائية performative التي ترتكز على فكرة مفادها أن القول Saying يكون أحياناً أداءً لفعل Doing؛ فعندما ينطق المرء الجملة في المثال رقم (1) في مراسم الزواج، «لا يصف» الزواج، وإنما ينغمس فيه من قمة الرأس إلى أخمص القدم. وعلى هذا النحو نظر فلاسفة أكسفورد إلى الوصف باعتباره وظيفة واحدة من بين وظائف كثيرة للغة يمكن أن يحفل بها البحث الفلسفي، فهناك السؤال والأمر والنهي والتعجب والرجاء وهَلُمَّ جرّاً، الأمر الذي دفع هؤلاء الفلاسفة إلى البحث عن قواعد الاستعمال لهذه العبارة أو تلك تحت هذا الظرف أو ذاك، ومن ثم بحث المعنى في حدود الاستعمال اللغوي، وتعدّ نظرية الاستعمال في المعنى حجر الزاوية في حركتهم الفلسفية.

---

(48) Austin, J.L.: **How To Do Thing With Words,** edited by J.O. Urmson, New York, Oxford University Press, 1970, p. 3.

(49) Ammerman, R.R.: ed., **Classics of Analytic Philosophy,** Bombay, New Delhi, Tata McGraw Hill Publishing LTD, 1965, p. 315.

(50) Austin, J.L.: **How To Do Things With Words,** p. 5.

(51) Ibid., p. 5.

وقدّم فلاسفة أكسفورد تصريف المعنى في حدود الاستعمال باعتباره قاعدة منهجية عملية، ونظروا إلى السؤال كيف تستعمل (س)، أو في أي السياقات تستعمل بطريقة ذات مغزى، باعتباره حيلة أو «أسلوباً»، على حد تعبير رايل، ينبهنا أولاً إلى الحقيقة القائلة إن الكلمات «تعني» بطرق مختلفة، وينبهنا ثانياً إلى أن معنى أية كلمة يرتبط دائماً بالسياق الذي تستعمل فيه، وساد الاعتقاد بأن الفكرة القائلة بأن المعنى يتجلّى من خلال الاستعمال هي واحدة من أعظم مآثر الفلسفة المعاصرة[52].

وفي إطار الاتجاه الثاني الذي يحفل ببحث العلاقة بين اللغة والمتكلم، تأتي محاولة جرايس لتحليل المعنى اللغوي في حدود نوع خاص من القصد الاتصالي Communicative Intention؛ إذ يزعم جرايس أن المعنى اللغوي لا بد من فهمه في حدود ما يعنيه المتكلم بالمنطوق، ولا بد من فهم هذا النوع الأخير من المعنى في حدود أن يقصد المتكلم بمنطوقه أن يحدث تأثيراً معيّناً في المستمع عن طريق إدراك المستمع لهذا القصد. ولكي يوضح جرايس هذه الفكرة يميّز بين نوعين من المعنى، الأول هو المعنى الطبيعي Natural Meaning الذي تمثّله الجمل الآتية:

(1) هذه البقع تعني (تدل على) الحصباء.

(2) هذه السحب تعني (تدل على) المطر.

(3) الدخان يعني (يدل على) النار.

ومن الواضح أن استعمال هذه الجمل لا ينطوي على قصد، لأن الأشياء الدالة في هذه الجمل، أي البقع والسحب والدخان، لم تحدث بشكل قصدي من جانب شخص معيّن للدلالة على الحصباء والمطر والنار، وإنما ترجع دلالتها لوجود علاقة علمية بين الدال والمدلول، وهذا يعني غياب القصد في استعمال هذه الجمل التي تمثّل المعنى الطبيعي.

أما النوع الثاني من المعنى فيسميه جرايس «المعنى غير الطبيعي» non-natural meaning وهذا المعنى يستلزم أن يحدث المتكلم صوتاً (أو علامة أخرى) بقصد التأثير في اعتقادات المستمع من خلال «إدراك» recogniting هذا المستمع أن الصوت (أو العلامة) قدم بهذا القصد، مثال ذلك إذا رأيت أستاذي على جانب آخر من الشارع ولوّحت له بيدي قائلاً: «السلام عليكم ورحمة الله وبركاته»، فإنني بذلك أقصد إلقاء التحية عليه، غير أن قصدي هذا لن يتحقّق ما لم يدرك أستاذي أنني أحييه؛ ويقدم جرايس مثالاً يقول: «هذه الرنّات الثلاث في جرس الأتوبيس تعني أن (الأتوبيس ممتلىء)[53]، هنا يرن محصّل الأتوبيس الجرس «ثلاث مرات بقصد حمل الناس على الاعتقاد بأن الأتوبيس ممتلىء من خلال «إدراكهم» أنه يرن الجرس ثلاث مرات بهذا القصد على وجه الدقة؛ وهكذا برن الجرس فإن محصل الأتوبيس يعني على نحو غير طبيعي، باصطلاح جرايس، أن الأتوبيس ممتلىء، وأن الرنّات الثلاث ذاتها تملك هذا المعنى غير الطبيعي.

ولعلنا نلاحظ من خلال عرض بعض الأفكار المحورية في الاتجاهين السابقين أن ثمة تعارضاً بين مدرسة الوضعية المنطقية ومدرسة أكسفورد في تصورهما لتحليل اللغة ووظيفتها ومدى

---

(52) Charles Worth, M.J.: **Philosophy and Linguistic Analysis,** Duquence Studies, Philosophical Series 9, Duquense University, Pittsburgh, 1959, p. 170.

(53) Grice, H.P.: «Utterer's Meaning and Intentions», **The Philosophical Review,** Vol. LXXVIII, 1969, pp. 147-177.

ملاءمتها للبحث الفلسفي، وهو تعارض عام ينشأ عنه تعارض يختص بنوع اللغة التي ينصب عليها التحليل، فاعتقد الوضعيون المنطقيون أن صياغة الأسئلة الفلسفية في اللغة الطبيعية أفضت إلى خلط لا أمل في التخلص منه، وذلك بسبب غموضها والتباسها واعتمادها على السياق وتضليلها، ولقد أدرك هؤلاء الفلسفة أمثال كارناب أن مهمتهم هي بناء لغة اصطناعية يمكن من خلالها اجتناب عيوب اللغة العادية، وكان الأمل يحدوهم أن اللغة المثالية ستفعل للفلسفة ما فعلته اللغة الرمزية في الرياضيات والمنطق بالنسبة للعلم.

بيد أن الرأي عند فلاسفة أكسفورد بخلاف ذلك؛ إذ اعتقد هؤلاء الفلاسفة أن اللغة العادية الطبيعية ملائمة تمام الملاءمة للأغراض الفلسفية، وأن الضرر يكمن في الانحراف عنها، وقرروا أن كل، وإن شئت اعتدالاً في القول قل معظم، مشكلات الفلسفة تنشأ من حقيقة أن الفلاسفة قد أساءوا استعمال بعض الكلمات الهامة مثل «يعرف» و «يرى» و «حر» و «صادق» و «سبب»؛ وبسبب انحراف الفلاسفة عن الاستعمالات العادية لهذه الكلمات وقعوا في أحاج لا سبيل إلى حلها مثل التساؤل عما إذا كنا نستطيع أن نعرف ما يفكر فيه الآخرون، ومن ثم أعتقد فلاسفة اللغة العادية أنه من غير الضروري ومن المتعذر على حدّ سواء الإفلات من اللغة العادية عن طريق اللجوء إلى بناء لغات اصطناعية، وكما قرر ستراوسون أن الهدف من توضيح المشكلات الفلسفية التي تحث على بناء لغة مثالية «سوف يبدو فارغاً، ما لم يكن للنتائج التي تمّ التوصل إليها تأثير ما على المشكلات والصعوبات التي تنشأ في ما يتعلق بالمفاهيم التي يتعيّن توضيحها؛ والآن فإن هذه المشكلات... لها جذورها في المفاهيم العادية غير المركبة، وفي الطرق المحيرة والخادعة لعمل التعبيرات اللغوية التي يتم تشكيلها... وإذا كانت الطريقة الواضحة لعمل المفاهيم المركبة هي إلقاء الضوء على المشكلات والصعوبات المتأصلة في الطريقة غير الواضحة لعمل المفاهيم غير المركبة، فيجب أن نظهر بوضوح الطرق التي ترتبط بها المفاهيم المركبة وتحيد عن المفاهيم غير المركبة، وكيف يمكن الوصول إلى «هذه» النتيجة دون أن نصف وصفاً دقيقاً طرق عمل المفاهيم غير المركبة، ولكن هذه المهمة هي على وجه الدقة مهمة السلوك المنطقي للتعبيرات اللغوية في اللغات الطبيعية، وربما تصل بذاتها إلى الحل المروم للمشكلات والصعوبات المتأصلة في الطريقة المحيرة والخادعة لعمل المفاهيم غير المركبة»[54]. وعلى هذا النحو يذهب فلاسفة اللغة العادية إلى أن مهمة الفلسفة هي توضيح المفاهيم العادية التي تثير مشكلات فلسفية وذلك من خلال فحص الطرق التي يستعمل بها المتكلم لغته الطبيعية.

وفي إطار هذا التصور للبحث الفلسفي في اللغة ذهب فتجنشتين إلى أن التفسير، باعتباره عملية رد للاختلافات السطحية إلى نظام تحتي، لا يمكن أن يقوم بدور في البحث الفلسفي، إذ يقول: «يجب أن لا يوجد شيء افتراضي في أبحاثنا، ويجب أن نتخلص من كل «تفسير» ويجب أن يحل محله الوصف وحده، ويحصل هذا الوصف على ضوئه، أي أثره، من المشكلات الفلسفية، وهذه المشكلات ليست تجريبية بطبيعة الحال، إذ يتمّ حلها بالأحرى عن طريق النظر إلى طرائق عمل لغتنا... فالمشكلات لا تحل عن طريق تقديم حقائق جديدة، بل بترتيب ما سبق أن عرفناه، فالفلسفة معركة ضد افتنان عقولنا باللغة»[55].

---

(54) Strawson, P.F.: «Carnap's View on Constructed Systems Vs Natural Language in Analytic Philosophy», in: **The Philosophy of Rudolf Carnap,** edited by P.A. Schilpp, La Salle: Open Court, 1963, pp. 512-513.

(55) Wittgenstein, L. **Philosophical Investigations,** part 1, sec. 109, p. 47.

وهناك اتجاه ثالث في فلسفة اللغة يقوم على أساس النظرية التحويلية في اللغة كما وضعها تشومسكي وأتباعه، ويختلف عن الاتجاهين السابقين في جوانب معيّنة ويتفق معهما في جوانب أخرى، ويوضح كاتز التصور الذي يقدمه هذا الاتجاه على النحو الآتي: «المهمة الخاصة بفلسفة اللغة، والتي تميّزها عن فروع الفلسفة الأخرى، هي أنها تسعى لإلقاء الضوء على بنية المعرفة المفهومية على أساس حالات من التبصّر في بنية اللغات التي يتم فيها التعبير عن هذه المعرفة وتوصيلها، ومن ثم فإن تصور فلسفة اللغة يبدأ بفكرةٍ ما عن: (1) ما هي اللغات الطبيعية، وكيف تتمّ دراستها على أفضل وجه؟ (2) ما هي العلاقة السائدة بين البنية اللغوية والمفاهيم التي تثير مشكلات فلسفية، (3) إلى أي حد يمكن أن تكون نتائج دراسة اللغات الطبيعية ملائمة لصياغة حلول للمشكلات الفلسفية»[56].

وتقبل المدرسة التحويلية وجهة نظر في ما يختص باللغة ودراستها مختلفة عن وجهة نظر الوضعية المنطقية وفلسفة اللغة العادية، ويكمن الاختلاف في أن المدرسة التحويلية تنظر إلى إشارات هاتين المدرستين إلى البنية اللغوية على أنها إشارات إلى المظهر السطحي للغات وتنظر إلى إشاراتها الخاصة بوصفها إشارات إلى الواقع التحتي حيث توجد العلاقات اللغوية الهامة[57].

وعلى الرغم من هذا الاختلاف الأساسي، فإن هناك مجالات تتفق فيها المدرسة التحويلية مع كل مدرسة من هاتين المدرستين، إذ تتفق المدرسة التحويلية مع الوضعية المنطقية في البحث عن نظرية لبنية لغوية تتخذ صورة النسق الذي تتم صياغته ولكنها تشترط أن تكون النظرية التي تتم صياغتها نظرية عن بنية لغوية في لغة طبيعية وليست لغة اصطناعية. وعلى هذا النحو فإن القواعد الصورية للنظرية لا بد من أن تمثّل العلاقات الواقعية في اللغة التي تكمن تحت ربطها للصوت والمعنى، وبالتالي تتفق المدرسة التحويلية مع مدرسة اللغة العادية في الإصرار على وصف طرائق عمل المفاهيم غير المركبة وصفاً دقيقاً، كما قرّر ستراوسون، في حدود الوصف الدقيق للسوك المنطقي للتعبير اللغوي في اللغات الطبيعية، فالظواهر التجريبية هي نقطة البدء في بناء نظرية لغوية ونقطة النهاية في تحققها على السواء. ولكنّ المدرسة التحويلية ترى أن الوصف ليس كافياً بذاته؛ إذ إن الوصف هو المرحلة الأولى في بناء التفسيرات التي تفترض بنى لغوية لا يمكن ملاحظتها في الكلام؛ فالوصف يقدم الدليل على هذه البنى اللغوية التحتية التي يتم تفسيرها بدورها عن طريق نظرية نحوية للبنى اللغوية التحتية[58].

وهكذا يرى أنصار المدرسة التحويلية أن تصورهم لفلسفة اللغة يتمتع بالمزايا التي يتمتع بها تصور الوضعية المنطقية وفلسفة اللغة العادية سواء بسواء، ولا تتعرّض مدرستهم للنقائص التي تعاني منها كل مدرسة منهما، فمن جهة التمتع بالمزايا نجد أن مزايا الصياغة والنظرية ترتبط بمزايا الاهتمام الواقعي باللغات الطبيعية والوصف المدقق للبنية اللغوية؛ وارتباط المزايا على هذا النحو يفضي إلى اجتناب النقائض، لأن التصور بهذا الوضع يتفادى تجاهل اللغة الطبيعية واللجوء إلى لغة اصطناعية من ناحية، ويجتنب قصر التحليل اللغوي على الوصف غير الصوري للاستعمال الذي لا يكشف عن مبادىء تفسيرية للصورة اللغوية من ناحية أخرى[59].

---

(56) Katz, J.J.: **The Underlying Reality of Langanage and Its Philosophical Import,** New York, Evanston: Harper & Row, 1971, p. 183.

(57) Ibid., p. 183.

(58) Ibid., pp. 183-184.

(59) Ibid., pp. 184-185.

ولم أعرض عليك تفصيل فلسفة الاتجاه الثالث، كما أني لم أعرض عليك تفصيل فلسفة الاتجاهين الأول والثاني، وإنما اكتفيت هنا كما اكتفيت هناك بهذه الخلاصة اليسيرة التي تصور تلك الخطوط العريضة لفلسفة اللغة المعاصرة؛ وعلى أساس هذه الخطوط العريضة يمكن أن نحدّد أهم المشكلات التي تشكّل مضمون هذا المبحث الفلسفي، وتأتي الأسئلة التي تتعلق بالمعنى اللغوي في مقدمة الأسئلة التي يعالجها فيلسوف اللغة مثل: ما هو المعنى؟ وما هي نظريات المعنى؟ وكيف نميّز بين العبارة ذات المعنى والعبارة الخالية من المعنى؟ وهل تتمتع عبارتان بنفس المعنى؟ وبعبارة أخرى، ما هو الترادف؟ وهل يوجد ترادف بالفعل؟ وما هو التشابه والاختلاف الدلالي؟ وما هو اللبس الدلالي؟ وما هو الصدق الدلالي (التحليلية)؟ وما هي أنواع المعنى، مثلاً، هل هناك تمييز بين المعنى المعرفي والمعنى الانفعالي؟ وما هي العلاقة بين المعنى والمواقف القضوية مثل الاعتقاد والقصد؟ وما هي العلاقة بين المعنى والترجمة؟ وما هي العلاقة بين المعنى والصدق، والمعنى والاستعمال؟ وهناك أسئلة تختص باللغة ذاتها مثل: ما هي طبيعة اللغة، وما وظائفها؟ وهل هي توقيف أم اصطلاح؟ وما هي النظريات المفسرة لعمليات تعلم اللغة؟ وكيف نفسر تعلم المرء للجانب الإشاري من اللغة؟

وبالإضافة إلى تلكم الأسئلة التي تقع في صميم فلسفة اللغة، هناك مشكلات تربط فلسفة اللغة بالميتافيزيقا والمنطق، مثل مشكلة العلاقة بين اللغة والعالم، والتي يجسدها السؤال: ما هي العلاقة بين بنية اللغة وبنية الأشياء التي تستعمل اللغة للكلام حولها؟ وفي إطار هذه المشكلة يعالج فيلسوف اللغة أسئلة أخرى مثل: هل اللغة الطبيعية العادية كافية للقيام بالوظائف المرجوة، أم أنها غامضة وقاصرة، ومن ثم يتعيّن علينا وضع لغات مثالية؟ كما يحفل فيلسوف اللغة ببحث الملامح المحددة لبعض التعبيرات اللغوية التي يهتم بها الفلاسفة لأسباب خاصة من قبيل أسماء الأعلام، والأوصاف المحددة، والمفارقات ونظرية الأنماط المنطقية.